المشرق

جمعة الآلام في الكنائس الشرقية

نظر للاب لويس شيخو اليسوعي

ينتهي الصوم الاربعيني في الكنيسة بذكر الاسرار الرهيبة والاعمال العجيبة التي اتاها السيد المسيح قبل ان يعود الى ابيه السماوي . وقد خص التقليد الرسولي لهذا التذكار الجليل جمعة كاملة ليطبع المسيحيون في قلوبهم سر الفداء الذي لاجله كان تجسد ابن الله وتصرفه مع البشر مدة ثلاث وثلاثين سنة . ذلك كان العمل العظيم الذي اشار اليه لشعيا في نبوته (٦٢ : ١١) فجعله الرب امامه ليتممه . تلك كانت الوصية التي قبلها من ابيه (يوحنا ١٠ : ١٨) ليبذل نفسه دون الخطأة . والصبغة التي كان يتوق الى الاصطباغ بها فيتضايق حتى تكمل (لوقا ١٢ : ٥٠)

وقد عرفت الكنيسة عظم هذه الأحداث فلم يمكنها ان تتغاضى عنها لا بل عليها بذلت كل طقوسها ورتبها الدينية فلا تكاد تجد في صلواتها ومناسكها عملا واحدا الا وفيه ذكر صريح او اشارة وتلميح الى تلك الاسرار ولا سيما في الذبيحة الطاهرة التي يقدمها الكهنة بلا انقطاع في كل اطراف المسكونة . وانما ارادت فضلا عن ذلك ان تخصص اسبوع تام لتجديد ذكر عمل الفداء فتكون كل افكار ابنائها منقطعة الى ما قالة وفعلة الحمل الرافع بموته خطيئة العالم (يوحنا ١ : ٢٩) وقد وضعت الكنيسة لهذه الغاية عدة صلوات ورسوم من شأنها ان تبعث في القلوب عواطف التقى

وشواعر الحبّ والشكر نحو من تنازل وقدّم نفسهُ ضحيّة عن الجبلة الآدميّة . وليس مقصودنا في هذه النبذة سوى ذكر بعض العادات التقويّة التي جرت في كنائس الشرق في هذه الأيام المباركة بنسبة وقوعها في التقويم في هذا الفصل من السنة

*

﴿ اسماء هذا الاسبوع ﴾ لهذه الجمعة السابقة لعيد الفصح اسماء متعدّدة تدلُّ كلّها على شرفها وسموّ مقامها في اعين المسيحيين . واوّل هذه الاسماء الجمعة العظيمة او الجمعة المقدّسة دعوها بذلك لما يُقام فيها من الرُّتب الحافلة ويُذكر من الاسرار القدسية ولما يمارسهُ النصارى من اعمال الصلاح استعداداً لاحد القيامة . وقد اوضح ذلك القديس يوحنّا فم الذهب في ميمرهِ الموسوم بخطبة الجمعة العظيمة (Migne, PP. GG., LV, 1037) قال :

« انَّ هذه الجمعة الكبيرة هي لنا بداية المرفأ للمسافرين بحراً والسَّبَق لمن يسابقون في الميدان والاكليل لمن يتصارعون في الملعب . فهكذا الاسبوع الحاضر فانهُ لنا رأس كل خير نحصل بهِ على الاكلّة الموعودة . وانّنا ندعوهُ بالاسبوع الكبير لا لطول ايّامهِ بل لعظم المآثر التي اصطنعها الربّ فان فيه بطل حكمُ ابليس وكُسر مهاز الموت وولّى مدبراً ذاك العدوّ القويّ وبادت اسلحتهُ . فيهِ انتسخت الخطيئة وسقطت اللعنة وانفتح باب النعيم وصارت سبيلهُ ممهّدةً وتلاشى ذاك الجدار الفاصل بين الملائكة والبشر وأُميط الستر الحاجب للجلال الالهي فالتقى الربّ بالسلام للسماء والارض »

وقد شاعت اسماء اخرى لهذا الاسبوع الكبير فدعتهُ ايضاً الكنيسة اليونانيّة اسبوع الآلام المُحيية والاسرار الخلاصيّة . وكذلك الكنائس السريانيّة تدعوه باسبوع الحاش اي الآلام . ومن اسمائهِ جمعة الغفران لأنَّ الاساقفة كانوا يصلحون في هذه الأيام التائبين مع جماعة المؤمنين بعد فروغهم من التأديبات الكنسيّة المفروضة عليهم لخطاياهم . وكان قياصرة الروم والامبراطرة ينفذون في هذا الاسبوع رسائل الى عمّالهم ليطلقوا سراح الاسرى والمسجونين اقتداء بمثل السيد المسيح الذي بآلامهِ فكَّ اسر البشر وخلّصهم من قيود الجحيم . ودُعي هذا الاسبوع بالاسبوع الفارغ (ἑβδομὰς ἀκράτητος) يريدون خلوّهُ من الاعمال الشرعيّة في المحاكم . واليه ايضاً اشار القديس يوحنّا فم الذهب في خطبتهِ المذكورة . قال :

« ولسنا وحدنا الذين نكرّم هذه الجمعة الكبيرة بل يعظمها ايضاً ملوكنا المسيحيّون اذ يأمرون

بابطال المحاكمات والدعاوي ليتفرّغ الجميع للاعمال الروحيّة ويفكّر العبيد في اصطناع المبرّات فيشاركوا الربّ في مساعيهِ المطهرة »

﴿ افتتاح جمعة الآلام ﴾ يكون افتتاح جمعة الآلام بذكر دخول السيّد المسيح في اورشليم بالرونق والأبّهة يوم ركب الاتان في بيت فاجي فسار الى القدس الشريف مصحوباً بقوم من بني اسرائيل كانوا تقاطروا اليهِ بسعف النخل وبسطوا ثيابهم في طريقهِ وصرخوا متهلّلين: هوشعنا بابن داود مبارك الآتي باسم الربّ. فذلك احد الشعانين وعيد النخل او الزيتون قد سبق لنا في المشرق (٨: ٣٣٧) وصف حفلاتهِ ورتبهِ فلا نرى حاجةً الى تكرار ذكرها

﴿ النصف الاوّل من اسبوع الآلام ﴾ وهي الاثنين العظيم والثلاثاء العظيم والاربعاء العظيم تبتدئ فيها الكنيسة بذكر الامور التي جرت بين الشعانين والعشاء السريّ فكانت كتهيئة قريبة للآلام. وترى في طقوس كلّ الكنائس ما يُشعر بالحزن والكآبة فتُقرأ الفصول من اسفار العهد العتيق التي فيها نبوّات عن آلام المخلّص كبعض فصول اشعيا وارميا وكقصّة يوسف الحسن واسرهِ اذ كان رمزًا عن المسيح المبيع من شعبهِ. وكذلك تُتلى امثال الانجيل التي تُشير الى رذل الشعب اليهودي كمثل التينة التي لعنها الربّ ومثل العذارى الحكيمات والجاهلات وذكر خيانة يوداس ويتلون فصل المرأة التي دهنت رأس المسيح بالطيب ذكرًا لدفنهِ. وكلّ هذه الرسوم قديمةٌ ترتقي الى القرون النصرانيّة الاولى قد جاء وصف كثير منها في الرحلة المنسوبة للقديسة سيلفية في القرن الرابع للمسيح في اثناء زيارتها للقدس الشريف وكانت حضرت هذه الرتب فوصفتها عن عيان

ومما رواهُ ابن سباع القبطي في القرن الثالث عشر في كتابهِ الجوهرة النفيسة في علوم الكنيسة (ص ١٦٠): انّ القبط في هذه الايام كانوا يمتنعون عن التقديس وعن رفع البخور وتجنيز الموتى وانهم كانوا يصلّون خارجاً عن الهيكل. وقد علّل ذلك بقولهِ انّ بني اسرائيل على حسب امرهِ تعالى (خروج ١٢: ٢٨—٣٠) كانوا يشتون خروفاً حولياً في العاشر من الهلال ويذبحونهُ عند مغيب الشمس في الرابع عشر منهُ. وكذلك المؤمنون بالمسيح يبطلون القداس او الذبيحة في هذه الأيام الثلثة « لان القداس فيهِ خروف الله يسوع المسيح المذبوح عن خطايا العالم ». وكذلك عُلّل صلاتهم خارجاً عن

الهيكل في هذه الأيام بقوله : « وسبب صلاتهم خارجاً عن الهيكل في هـذه الثلاثة أيام هو لأن المسيح قد تألم خارج المدينة كما قال الرسول (عبر ١٣ : ١٣) : « فلنخرج معهُ خارج المحلَّة حاملين عارهُ (اي صليبهُ) . فلذلك رتَّبت آباء الكنيسة أنْ يُصلَّى كلّ هذا الاسبوع خارجاً في الخورس الاوسط »

ومن غريب عادات بعض نصارى هذه البلاد انَّهم ينقعون يوم ثلاثاء اسبوع الآلام الماء بالزهور ويغتسلون بهِ في الاربعاء ويزعمون انها بركةٌ تردُّ عنهم عدَّة اعراض كالرمد وغير ذلك . ومنهم من يستحم في هذا النهار في البحر . وهم يدعون هذا الاربعاء اربعاء أيوب . وقد وجدنا وصف هذه العادة في كتاب المدخل لابن الحاج في القرن الرابع عشر لكنهُ يجعلها في يوم سبت النور قال (١ : ٦ : ٣٠) : « فمن ذلك ما يفعلونهُ في سحر ذلك اليوم وهو انهم يجمعون في امسهِ ورق الشجر على انواعها حتى الريحان وغيره فيبيتونهُ في اناء فيهِ ماء ويغتسلون بـهِ ثمَّ يأخذون ما اجتمع من غسلهم ويلقونهُ في مفرق الطريق ويزعمون انَّ ذلك يذهب عنهم الامراض والاسقام والكسل والعين والسحر . . . » والظاهر انَّ هذه العادة قد بطلت اليوم عند الاقباط لكنَّهم يصطنعون الاربعاء فريكا ويوزعونهُ على المحتاجين . ومن عادات بعض اهل الشام انهم يحجبون في هذا النهار المرايا

وفي مساء هذا يوم الاربعاء تقدّم الكنيسة الغربيَّة صلاة الليل القانونيَّة المعروفة بالظلمات دُعيت كذلك لأنَّهم يطفئون في اثنائها الشموع الموقدة اما تنويهاً بالظلمة التي امتدَّت على وجه الارض بكسوف الشمس عند موت المسيح واما اشارةً الى حزن الكنيسة لموت الرب شمس البرّ ونور العالم . وقيل ايضاً انَّ هذه الانوار المطفأة تدلُّ على تبدُّد التلاميذ وخذلانهم للمسيح وقت آلامهِ ولذلك يتركون شمعةً غير مطفأة يحجبونها وراء الهيكل يرمزون بها الى البتول مريم التي وحدها حفظت في قلبها الايمان بلاهوت ابنها رغماً عمَّا اصابها من الاكدار والاحزان . وقال آخرون انَّ الشمعة الموقدة المحجوبة يُقصد بها دفن المسيح واحتجابهُ في قبرهِ ثلاثة أيام . وهذه الرتبة كانت شائعة في القرون الاولى في كنائس الشرق فاستعارتها منها الكنيسة الغربيَّة

﴿ خميس الاسرار ﴾ نُسب هذا الخميس الى الاسرار لأنَّ فيهِ كما قال يوحنَّا الرسول قد احبَّ الربُّ رسلهُ فاظهر لهم الحبَّ الى منتهى الغاية فرسم تلك الاسرار العجيبة التي اورثها كنيستهُ الى آخر الاجيال . ويسمَّى ايضاً يوم الخميس الكبير والخميس

المقدّس وخميس الفصح قال ابو الفداء (١ : ٩٦) «لأنّ المسيح افصح فيه بالخبز والخمر» ويدعوه السريان خميس الاسرار (ܚܡܝܫܝ ܕܨܒܘܬܐ). ويُعرف ايضاً بخميس العهد وهكذا دعاهُ المقريزيّ في الخطط (١ : ٤٩٥) قال: «ويسمّيه اهل مصر العامّة خميس العدس ويعملهُ نصارى مصر قبل الفصح بثلاثة أيام ويتهادون فيهِ (١). امّا سبب تسميته بخميس العدس في مصر فعلّلهُ ابن الحاج في المدخل (١ : ٣٠٥) بقولهِ: «انّ نصارى مصر كانوا يستعملون العدس المصفّى ويتحرّونهُ في ذلك اليوم وكانوا يزعمون انّ من لم يفعلهُ منهم تشوّش هو واهلهُ»

ومن مخصوصات هذا العيد ذكر العشاء السرّي الذي اقامهُ الرب مع تلاميذهِ وابطل فيهِ الفصح القديم ورسم فصحاً جديداً فأعطى جسدهُ ودمهُ الطاهرين مأكلاً ومشرباً لذويهِ بدلاً من الحمل الفصحيّ الذي كان مرموزاً بهِ عنهُ. فكل الكنائس في هذا اليوم تحتفل بهذا السرّ احتفالاً عظيماً وكان المسيحيّون في القرون السابقة ينقطعون فيهِ عن كلّ الاشغال المادّيّة كما في الاعياد الكبيرة ثمّ جعلوهُ نصف عيد لاسيما منذ جرت العادة لاكرام سرّ القربان في موسم بهيج في الخميس التالي لخميس الصعود فبقي خميس الاسرار مختصاً بذكر العشاء السرّي

ولا يُقام في هذا النهار غير قدّاس واحد لكنهُ يُتلى بكل رونق وبهاء. والكهنة الحضور يقبلون القربان الاقدس من يد الاسقف او الرئيس المتولّي الحفلة يشيرون بذلك الى العشاء السرّي حيث المسيح وحدهُ رسم القربان بصفة كاهن العهد الجديد وقبلهُ التلاميذ من يدهِ. وكانت العادة في القرن الرابع ان يُقدّس في هذا النهار وحدهُ على الجلجلة وراء المكان الذي نُصب فيهِ الصليب كما ورد في رحلة القديسة سيلفية (Gamurrini: S. Silviæ peregrinatio, 93)

واعلم انّ في صلوات الكنائس الشرقيّة في هذا النهار ادلّةً لا تُحصى وحججاً دامغة على اعتقاد المسيحيين باستحالة الخبز والخمر الى جسد ودم السيّد المسيح مع وجود طبيعتيهِ تحت اعراض هذه الاشكال المحسوسة. ولو اردنا ذكر هذه الشواهد لطال بنا

---

(١) وقال ايضاً: «انهُ كان من جملة رسوم الدولة الفاطميّة في خميس العدس ضرب خمسمائة دينار ذهباً وعشرة آلاف خرّوبة وتفرقتها على جميع ارباب الرسوم»

المقال (١ وكفاك ان تعرف انَّ للكنيسة القبطيَّة موعظةً في القربان المقدَّس اثبتها ابن سباع في كتابه الجوهرة النفيسة في علوم الكنيسة (ص ١٣٢—١٣٦) تُقرأ في هذا النهار (ص ١٦١) يقول في اثنائها:

« انَّ الرب بقوله جسدي مأكل حقّ ودمي مشرب حقّ أباح لنا ان نأكل جسدهُ ونشرب دمهُ الحقيقيين وليس مجازيًّا ولا استعارةً ولا كناية ومن ذلك يتسبَّب لنا اتصال حياتنا الابديَّة وتثبت فيه وهو يثبت فينا فلا يلزمنا اذًا ان نتأخر عن اكل جسده وشرب دمه »

وكذلك يشهد البطريرك النسطوريّ ايليا الثالث المعروف بابي حليم في ترجامه الثالث عشر (طبعة الموصل ١٠٩—١١٧) الذي لهذا اليوم. وفيه يقول:

« اعلموا انَّ فصحنا نحن معاشر الابناء. كما قال بولس رسول السماء (١ قور ٥: ٨) ليس هو بخمير العتق ولا بخمير السوء والخبث بل بفطير الخلوص والحق. ليس كالفصح الاعتق الخليق. ولكن بدم السيد المسيح الذي سُفك عن كلّ الخلائق وأُريق. هو الاضحيَّة الناطقة التي تطهّرنا من دنس الآثام بدمها وتخلّصنا من آثار الذنوب والاجرام بآلامها. وذلك بانَّ مخلّصنا لمَّا اكل الفصح الفطيري واكمل ناموس القصاص. قرَّر قواعد فصحهِ السرّي مع التلاميذ الخواصّ. واخذ خبزًا ادرَّ عليهِ منابع البركات. ونثر عليهِ من قدسيّ فمهِ شذور الدعاء ودُرَّ الصلوات. قائلًا هذا جسدي المبذول عن قاطبة الخلائق. والاضحيَّة التي اضحت خاطبةً لغفران الخطايا من لدن الخالق. ثمَّ اخذ كأسًا من الرحيق. وقال انَّ هذا لدمي على التحقيق. فمن شرب منهُ فاز بالحياة الابديَّة. وأعدَّ لهُ سرادق العزّ والاكرام في العراص الملكوتيَّة. هذا هو الخبز النازل من سماء العزَّة. وملبّس القلوب والاذهان اسنى بزَّة. . . »

والمسيحيُّون في الغالب لا يكتفون بحضور هذه الرتب لكنَّهم يتقرَّبون ايضًا من الاسرار وتلك عادةٌ بل سنَّة شاعت في كنائس الشرق كما في الغرب. وقد وجدنا شاهدًا على ذلك في كتب العرب قال ابو الفرج الاصبهاني في ترجمة عديّ بن زيد الشاعر العبادي (في كتاب الاغاني ٢: ٣٢) يذكر هند ابنة المنذر: « وخرجت (هند) خميس الفصح وهو بعد الثمانين بثلاثة ايَّام تتقرَّب في البيعة »

وفي آخر القدّاس يُحمل القربان الاقدس في موكب حافل وبرتبة جليلة الى مكان مزدان بالشموع وضروب الاقمشة والانسجة الثمينة والآنية الفاخرة فيُصعد الى اليوم الثاني وهناك يتوارد المسيحيون لتأدية فرائض السجود دون انقطاع

---

١) من اراد كلامًا مطوَّلًا في ايمان الكنائس الشرقيَّة بسرّ الاستحالة عليهِ بفصول مسهبة للعلَّامة البطريرك مار اسطفان الدويهيّ في كتاب منارة الاقداس الذي طبعهُ في مطبعتنا الاستاذ الفاضل رشيد افندي الخوري الشرتوني (ج ٣ ص ٢٢٥—٢٦٩)

ثمَّ تُعرَّى المذابح من كسوتها برُتب معلومة في الكنيسة اليونانيَّة وتُغسل غسلًا نعمًا بالماء الحارّ ثم بالماء المطيَّب يشيرون بذلك الى تطييب جسد المسيح بعد صلبه

ومن الرُّتب الشائعة في هذا اليوم عينهِ رُتبة غسل الأرجل يقوم بها الاسقف او احد كبار الرؤساء والكهنة فيمثلون احسن تمثيل غسل الرب لاقدام تلاميذهِ بعد لكمهِ للفصح العتيق كما اخبر يوحنَّا في انجيله . وقد ألف هذه العادة الاحبار الرومانيون فيتممون وصيَّة الربّ بغسل الاقدام لاثني عشر شمَّاسًا ولاثني عشر فقيرًا وكذلك يرى على هذه العادة ملوك النصرانيَّة في الزمن القديم ويجري عليها في يومنا امبراطور النمسا اقتداء بمثل السيد المسيح فيغسل ارجل الفقراء اتضاعًا

ومذ هذا اليوم تتضاعف الكنيسة اكتئابها وحزنها فيُحجب في كنائس الشرق الهيكل بالاستار وتُغلق ابوابهُ . ويمثلون على الاستار شعائر الآلام . ولا يتركون على المذابح سوى الصليب وحدهُ

ومن خواصّ هذا اليوم ايضًا تقديس الزيت الذي تتخذهُ الكنيسة في اسرارها وهذا الزيت على ثلاثة ضروب فمنهُ زيت المرضى للمسحة الاخيرة . ومنهُ زيت الميرون يُستعمل في منح الاسرار الثلاثة اي العماد والتثبيت والكهنوت . ومنهُ زيت للموعوظين يُتَّخذ في سرَّي العماد والكهنوت وفي مسح الملوك . ولها كلها بركة رُتب طويلة وبهيَّة يقوم بها الاسقف وعدد عديد من الكهنة والشمامسة . وكان البطريرك وحدهُ في كنيسة القسطنطينيَّة يتولَّى تقديس الزيت بأبهة عظيمة يساعدهُ فيها المطارنة والاساقفة . ويتأنَّقون بتركيب الميرون فيدخلون في مادَّتهِ نحو اربعين شكلًا من الطيوب والاقاويه (١ . وكثير من هذه الرتب ترتقي الى قرون النصرانيَّة الاولى كما يظهر من شواهد مختلفة للآباء الاولين كالقديسين قبريانوس وباسيل وافرام وجلاسيوس ونصوصهم تدلُّ على ان ذلك تقليد متواتر يرتقي الى أيام الرسل (مرقس ٦ : ١٣ ويعقوب ٥ : ١٤) . ولم يكن في اوَّل الكنيسة يوم محدود لرتبة تقديس الزيت والميرون ثم خصُّوا بهذه الرتبة سبت النور ثمَّ نقلوها الى خميس الاسرار . وكانوا اوَّلًا لا يباركون غير الميرون في هذا اليوم . ثم اخذوا بتبريك الثلاثة الاصناف من الزيت المقدس تيسيرًا للامر . وكذلك جعل الاساقفة الشرقيون يفوّضون الكهنة في تبريك الزيت والميرون

(١ اطلب صورتها في الافخولوجيون الكبير (ص ٢٦٧)

ومما كانت ايضاً تحتفل به كنائس الشرق في مساء هذا النهار ذكر صلاة الربّ في بستان الزيتون وتسليم المسيح لاعدائه على يد يوداس التلميذ الخائن وكانوا يتلون في ذلك المساء التسابيح والصلوات وينشدون الاناشيد وربّما اتّخذوا كاهناً يمثل لهم حسيًّا تلك الأحداث. وقد اخبرت صاحبة رحلة القدس السابق ذكرها انّ هاتين الرتبتين كانتا جاريتين في اورشليم مساء يوم الخميس وانّ الشعب كلّهُ كان يبكي ويعول اذا ما رأى يهوذا الاسخريوطي مسلّماً سيدهُ للموت

﴿ الجمعة العظيمة ﴾ هذا اليوم كلهُ للحداد والحزن والتوبة وذكر الآلام التي احتملها ابن الله بمشيئته لخلاص البشر. وكانت الكنيسة في سالف الاعصار تقضي الليل كلهُ في اقامة هذه الاسرار لتشارك المسيح في اوجاعه. وكانوا لا يستثنون من هذه الفريضة احداً حتى الاطفال فوق السابعة من سنّهم. ولنا شاهد على ذلك في رواية القديسة سيلفية عن ليلة الآلام في القدس (ص٩٤) وفي صلوات القنقيط في كنائس السريان وهي تستغرق الليل كلهُ. وكذا كانت تفعل بقيّة الكنائس شرقاً وغرباً

ومن شارات هذا الحزن العظيم سجود الكهنة بخورهم على الوجوه يمثلون بذلك كأبة المسيح في بستان الجمانية. ومنها لبسهم الحلل السود وهو لون الحداد. قال الدويهي في منارة الاقداس (٢: ٤٤٢) : «ولاجل هذا الحزن الشديد رسمت البيعة عند ما تصنع تذكارهُ ان ترتفع المراوح ويبطل دُخان البخورات وتُطفأ المنائر وتُغلق ابواب القدس ويصمت الشمامسة عن الترتيل ورأس الكهنة ينزع عنهُ تاج الكرامة وبطرشين السلطة ويترك عصا الرعاية. وكالبيامة التي فقدت قرينها ينوح في السرّ اذ يرسم بالجوهرة صلبان الآلام والموت فوق الدم المسفوك في الكأس». وكل هذه امائر الحزن رموز الى ما لحق بالمسيح من الاوجاع او ما حلّ بالطبيعة من الاكدار لموته على ما ذكر الانجيليون

وفي هذا النهار تبطل الذبيحة في كلّ الكنيسة فلا يقدَّس غير القربان السابق تقديسهُ يوم الخميس يريدون بذلك انّ ذبيحة الصليب الدمويّة هي التي تقوم مقام كلّ الذبائح غير الدمويّة التي تقدَّم على المذابح ومقام ذبائح العهد العتيق التي بطلت بموت المسيح كما ورد في نبوّة دانيال (٩: ٢٧). وكانوا يبدلون الذبيحة بادعية مستطيلة يرفعونها الى الله لاجل الكنيسة كلها من مؤمنين وغير مؤمنين لا يستثنون من ذلك

عبدة الاصنام واليهود . وهذه الادعية قديمة جداً ذكرها القديس لاون الكبير في القرن الخامس

وفيه ايضاً رفعُ الصليب وعرضهُ على كل الحضور ليقدّموا لهُ السجود الواجب لانهُ الراية التي بها انتصر ابن الله على قوّات الجحيم وبها فتح لنا السماء الموصد بالخطيئة الجدّية . وبعد السجود يُنصب الصليوت على الهياكل ليكرَّم فتُجمع امامهُ الشماعد الموقدة ويُقدَّم لهُ البخور وتُتلى امامهُ المزامير والصلوات . والقبط يقولون كيريالیصون اربعمائة مرّة مشة مرّة لكلٍّ من الجهات الاربع مع ضرب المطانيات او السجود ثمَّ يدورون حول الهيكل بالصور والصلبان ثلاث دورات . وفي بعض الطوائف يمثلون الظلمات التي انتشرت على جميع الارض يوم موت المسيح فيطفئون كلّ الشموع عشاء فلا يُرى غير الصليب ويصوّرون الشمس مكسوفةً والقمر مخسوفاً بصناعة دقيقة تحيك في القلوب وتبعث التقوى في النفوس . وروت القديسة سيلثية في رحلتها انَّ اسقف اورشليم كان في مساء هذا النهار يعرض على اهل المدينة ذخائر الآلام ولا سيما قطعة الصليب المقدَّس فيكرمها الجميع بالتقبيل والسجود

ومما يسم الكنائس الشرقيَّة كافَّةً رتبة الدفن . وذلك انَّ المؤمنين يجتمعون اصيل النهار فتُتلى صلوات شتَّى تذكر بآلام المسيح وربما خطب الخطباء في سرّ الفداء وفي موت الرب على الصليب . ثمَّ يفكُّون صورة المصلوب عن صليبهِ ويغسلونها بالماورد ويلفُّونها في ستر ابيض شبه الكفن ويحملونها على نعش مزيَّن بالزهور يحملهُ الكهنة وينقلونها بموكب عظيم يتقدَّمها الاكليروس بالبخور ويتغنَّى الشمامسة والشعب بالالحان الشجيَّة ذات المعاني البليغة والالفاظ الرخيمة والعبارات المؤثرة المقتطفة من اقوال الآباء والملافنة . فاذا بلغوا الى القبر وهو عبارة عن مقام داخل الهيكل مزيَّن بالزهور وضروب الحليّ في وسطهِ شبه تابوت يُضجعون المصلوب فيهِ على المخمل بين الرياحين وجههُ الى الشرق ثم يقفلون القبر بوضع الختوم عليهِ كما فعل اليهود بقبر المسيح . فيبقى المصلوب هناك الى رتبة القيامة يتقاطر اليهِ الشعب ليكرّموهُ في قبرهِ

وقد زاد البعض منذ سنين حفلة درب الصليب اخذوها عن المرسلين اللاتينيين فاضافوها الى طقوسهم وجعلوها كسلك ختام هذا اليوم العظيم

﴿ السبت الكبير ﴾ ويُدعى ايضاً السبت المقدَّس وسبت الدفن وسبت النور .

وهو جامع بين الحزن والفرح فالحزن اشارة الى دفن السيد المسيح والى كآبة تلاميذه وامه الطاهرة بعد موته. والفرح بظفر الربّ من الموت وفرح نفسه السعيدة عند حلولها في جحيم الينبوس لتبشر الآباء بالخلاص وتفك اغلالهم. ويدخلها شيء من فرح القيامة لأنّ الرتب التي تقام فيها كان حقها ان يحتفل بها ليلاً ثمّ قدّمتها الكنيسة واقامتها في النهار لئلا تثقل اعباؤها على المؤمنين

واوّل ما يختصّ بهذا العيد بركة النار الجديدة. فانّ الانوار كانت طفئاً في الليلة السابقة اشارةً الى الحزن والكآبة فاتخذت الكنيسة لايقادها رتبةً خاصّة بصلوات معلومة تتلى في خارج الكنيسة ومنها توقد بقيّة الانوار مباشرةً بالمشعل المثلّث الشعب رمز الثالوث الاقدس ثمّ الشمع الفصحيّ الذي هو رمز القيامة ويوقد في الحفلات الكبيرة الى عيد صعود الربّ ثمّ قناديل الكنيسة وكلّ ذلك بصلوات تقويّة تشير الى السيّد المسيح الذي بقيامته بدّد الظلمات التي كان العالم متسكّعاً فيها قبل مجيئه ولذلك دُعي هذا النهار سبت النور. وقد روى بعض الكتبة الثقات انّ هذه النار الجديدة ظهرت في بعض السنين السالفة بطريقة عجيبة في القدس الشريف في كنيسة القبر المقدس. امّا ما يزعم الزاعمون انّها لا تزال حتى اليوم تتّقد هناك بالمعجزة فلا اصل له البتّة ولم يعد احد يصدّقهُ غير السذّج من العامّة

ومن رتب هذا العيد عماد الموعوظين الطالبين التنصّر فانّ الكنيسة تمنحهم هذا السرّ خصوصاً في سبت النور وهو يوم أليق من سواه لذلك لانهُ واقع بين موت المسيح وقيامته فكذلك المعموديّة تجيز الانسان الذي ينالها من موت الخطيئة الاصليّة الى قيامة الحياة والتبنّي لله. فيدفن الخاطئ في مياه المعموديّة الرجلَ العتيق ليلبس الرجل الجديد كما قال الرسول في رسالته الى اهل كولسّي (٢ : ١٢) : « دُفنتم مع المسيح في المعموديّة التي فيها ايضاً أُقمتم معهُ بايمانكم »

وهذه رتبة العماد تتمّ بكل رونق وبهاء في الكنائس الكاتدرائيّة فيذكّرونهم بعظم السرّ الذي يطلبونهُ ثمّ يتلون عليهم صلوات التعزيم لينجوا من قوّات الارواح الشرّيرة ثمّ يدهنونهم بزيت الموعوظين. وبعد قراءة اثني عشر فصلاً من النبوّات التي تشير الى المعموديّة وتجدّد الانسان بالنعمة يباركون اجران المعموديّة ثمّ ينصرون الموعوظين بمنح سرّ العماد ويمسحونهم بالميرون ويلبسونهم الثياب البيض دلالةً على ثوب البرارة الذي كسا

به الله نفوسهم ويتقرّبون آخرًا من سر القربان. اما الكنائس التي لا يُمنح فيها العماد فتقتصر على طلبات القديسين

ومن الرُّتب الجليلة التي ألفتها الكنائس السريانيَّة في هذا النهار رتبة الساعة يجتمع فيها الاكليروس مع العالمين وبعد تلاوة الصلوات والتماس الغفران عن الذنوب من مراحم تعالى يخرّ الرئيس على الزّكب ويطلب ثلاثًا من الحضور الساعة عن سيّئاته وكذلك يفعل الشعب فيستعذُون بذلك لعيد القيامة المجيد بالمحبَّة واتّفاق القلوب

وفي جميع الطوائف الشرقيَّة يحتفلون يوم سبت النور او صباح القيامة برتبة فتح القبر والبعض يدعونها رتبة السلام فيذهبون بموكب عظيم الى القبر ويفضُّون الختوم ويترعون عن المصلوب لفائفهُ وينصبونهُ بعد تبخيره من عن يمين المذبح بين الشموع والمراوح واصناف الورد والرياحين ويصلون بقيامة المسيح ويتلون في ذلك صلوات وتسابيح بالحان مفرحة

وقداس هذا النهار هو قداس القيامة يترعون في اثنائهِ ثياب الحداد عن الهياكل ويقرعون الاجراس ويزينون الكنيسة بآنية الاعياد ويرتّلون ترتيل الفرح والهليلويا التي كفُّوا عنها منذ الاحد الثالث قبل الصوم

وهذا القداس الحافل يصير عند الارمن والسريان في مساء السبت. وكانت الكنيسة القسطنطينيَّة تقيم هذه الحفلة ليلًا فيقضي الشمامسة والكهنة نحو نصف الليل في تلاوة الصلوات والاسفار المقدَّسة ثمَّ يطوفون حول الكنيسة بالرايات دون الاتوار فاذا وصلوا الى بابها الغربيّ قرعوهُ فينفتح امامهم وتظهر الكنيسة مشعَّة بالانوار مزدانة باصناف الحليّ ويباشرون برتبة القيامة ويفتتحونها بتقبيل الانجيل الشريف الذي يمسكهُ الاسقف او متولّي الرتبة بمنديل من الحرير الابيض ثمَّ يقبّلون بعضهم بعضًا بقبلة السلام ويواصلون الحفلة الى الصباح ولذلك يدعون هذه الليلة الليلة المنيرة والليلة البهيجة والليلة المشعَّة. وكان يزيد الحفلة رونقًا اتخاذهم في تلك الليلة اصناف الادوات الموسيقيَّة ليمجدوا قيامة الرب بالقرن والقيثارة والكنّارة والمعازف والدفوف والاوتار والارغن اذ قد قهر المسيح الموت بالغلبة وقام من بين الاموات بين تسابيح الملائكة وتماجيدهم

هذا ونصارى الشرق في سبت النور عادات تختلف على اختلاف الامكنة فمن ذلك انهم كانوا يسقون المتمدين جديدًا كأسًا من الحليب والعسل دلالةً على حداثتهم

في الايمان وحلاوة نير الرب . ومنهم من يصبغ فيه البيض الوانًا وهو بيض الفصح الذي مرَّ ذكره كاحد رموز القيامة (المشرق ٩ : ٣٤٥) . واخبر ابن الحاج في المدخل (١ : ٣٠٦) انَّ اقباط مصر «كانوا يكتحلون في صبيحة ذلك اليوم بالسذَّاب او الكحل الاسود او غيرهما ويزعمون انَّ من اكتحل من ذلك يكتسب نورًا زائدًا في بصره» . ومن عادات النصارى المحمودة انَّهم اليوم اذا صادفوا بعضهم يسلِّم الواحد على رفيقه بقوله : «قد قام المسيح» فيجيبهُ الآخر: «حقًّا قام» . وتدوم هذه افراح القيامة الى يوم عيد الصعود والمسيحيون في ذلك الوقت ينعشون ايمانهم بالقيامة العتيدة ورجاء الحياة الخالدة في السماء لعلمهم بأنَّ المسيح قد قام وهو باكورة الراقدين كما قال القديس بولس وانَّ موتهم ليس هو غير رقاد مثل موته سوف يتمُّ يومًا بقيامة اجسادهم ليلبس الفاسد عدم الفساد والمائت عدم الموت فيكسرون كفاديهم شوكة الموت كما كسروا شوكة الخطيئة بعبادهم وبرّهم . فشكرًا لله الذي منحنا الغلبة بربنا يسوع المسيح (١ كورنتوس ١٥ : ٥٧)

السنّ او آثار قصر الخلد وبقايا قصور البرامكة

لحضرة الاب الفاضل انستاس الكرملي

١ مقدمة

ان ايدي الزمان التي تعبث باحوال بني آدم وبآثارهم ومآثرهم قد لعبت ايضًا ببعض ابنية بغداد حتى انهُ يكاد يستحيل اليوم على الباحثين والعلماء المولعين بالآثار الوقوف على معاهد دار السلام في سابق الايام لو لم يبقَ بعض المقابر والمشاهد الدينيَّة التي حافظ اهل التقى عليها لاختلافهم اليها يومًا بعد يوم وسنةً بعد سنة وبواسطتها نستطيع ان نهتدي الى ما اندرس في بغداد من عمائرها السابقة

ومما يستوقف أنظار الانتظار ويستلفت شريد الأفكار انقاضٌ واقعة على ضفَّة دجلة في الكَرْخ يعني في الجانب الغربي بإزاء ما هما اليوم دارا قنصليَّتَي فرنسة والمانية وما بينهما الواقعتين على ضفَّة دجلة في الرُصافة اي في الجانب الشرقيّ من المدينة الزَوراء وهذه البقايا تُعرف اليوم باسم «السِنّ» وسبب تسميتها ظاهر وذلك انها تتقدَّم في دجلة وتقع فيه موقع السنّ من فم الانسان . وكل من رأى السنّ من الاجانب حكم

انهُ من اطلال ابنية العبّاسيين والسبب هو ان هذا الرسم الباقي مبنيٌ بموادَ لا تُعرف اليوم. اجزاؤها بالتحقيق. وهذه الموادَ قد جمعت بين الآجرّ والآجرّ حتى صارت كلهـا كانها حجر واحد ضخم لا بل صخرة صَلْد. واذا حاول الرجل ان يستخرج منها بحوّلهِ طابقةً واحدةً لما امكنهُ ان يستلّها سالمة بل لا بُدّ ان تخرج متفتّتةً لاستحكام اجزاء مطامس البناء واخذ جواهر بعضهِ بجواهر البعض الآخر على ما قدّمناهُ

هذا وفضلًا عن شهادة الاجانب تواتر تقاليد ابناء الوطن فانهم هم ايضاً يقولون ان هذه الرُدُوم هي من دوارس مباني العبّاسيين لكنهم لا يستطيعون ان يقولوا بالتدقيق ما التي كانت عليهِ في سابق الزمن. ولمّا كنتُ قد توفّقت الى معرفة ذلك جئتُ اتحف اصحاب الآثار وحبي مآثر العبّاسيين هذا الكشف والله الموفّق الى سواء السبيل

٣ اصل السن

قال ابن بطوطة في الصفحة ١٠٧ من الجزء الثاني من رحلتهِ يصف الكَرخ وهو الجانب الغربيّ من بغداد ما هذا نصُّهُ بحرفهِ:

« ومن هذه المحلّات (اي محلات الكرخ) محلّة باب البصرة وبها جامع الخليفة ابي جعفر المنصور رحمهُ الله. والمارستان [العَضُديّ] فيما بين محلّة باب البصرة ومحلّة الشارع على الدجلة وهو قصر كبير خَرِبٌ بَقِيَت منهُ الآثار. وفي هذا الجانب الغربي من المشاهد قبر مَعْروف الكرخيّ رضه وهو في محلة باب البصرة » اه المقصود من ايرادهِ

فباب البصرة يُعرف اليوم بباب الشيخ (بكسر الاول وسكون الثاني) لان قبر الشيخ معروف الكرخي مجاور للمحلّة المذكورة واما محلّة الشارع فهي قريبة من محلة باب البصرة. وكان جامع الخليفة قريباً من قصرهِ المشهور بالخُلد على ما هو مدوّن في كتب التاريخ. وعلى أطلال الخلد كان قد بنى عضدُ الدولة فنّا خسرو ابو شُجاع بن رُكن الدولة ابي الحسن عليّ بن بُوَيهِ (١ البيمارستان المسمّى بالعضدي وذلك سنة ٣٦٨ هـ. (٩٧٨م) وهو الذي كان قد أذن في تلك السنة عينها لكاتبهِ النصرانيّ نصر بن هرون في عمارة البيَع والاديرة واطلاق الاموال لفقراء المسيحيين ومحاويجهم

١) اصل ضبط كلمة بُوَيْه بتشديد الواو المفتوحة وابقاء الباء وضمتها والياء وسكونها. ثم خفّفها العرب فقالوا بُوَيه كزُبَير ومنهم من بُوَيْه بضم الباء واسكان الواو وفتح الياء. والكلمة مركبة من « بُوْ » وهي لفظة فارسيّة معناها جوز بوّا. و « وَيه » ومعناهُ بالفارسيّة ايضاً رائحة فيكون معنى الاسم المنحوت « رائحة جوز بوّا » ومثل هذه الاسماء عندهم كثير منها سيبويه ونفطويه وبرزويه وخالويه

وعليه فيكون السنّ من بقايا قصر الخلد او البيمارستان العضديّ. قال ياقوت في معجمه في مادّة الخلد ما هذا حرفهُ:

(الخُلْد) بضم اولهِ وتسكين ثانيهِ. قصر بناهُ المنصور امير المؤمنين ببغداد بعد فراغهِ من مدينتهِ على شاطئ دجلة في سنة ١٥٩ هـ. (٧٧٥م)

وزاد صاحب التاج زوائد ترجع الى ما قالهُ ياقوت:

« وكان موضع البيمارستان العضدي اليوم او جنوبيّهُ. وبُنيت حوالَيهِ منازل فصارت محلّة كبيرة عُرفت بالخلد. والاصل فيها القصر المذكور وكان موضع الخلد قديمًا ديرًا فيهِ راهب وانما اختار المنصور نزولهُ وبنى قصرهُ فيهِ لطِيب البقّ (اي البعوض لا الفساقس) وكان عذبًا (١ طيب الهواء لانهُ أشرف المواضع التي ببغداد كلها (اي اعلاها كما هو الواقع الى يومنا هذا) اه.

وقال ياقوت في مادّة بغداد:

« فاتى (المنصور) موضع بغداد وهو موضع قصر السلام (٢ (وهو غير قصر الخلد) ثم صلّى العصر وذلك في صيف وحرّ شديد وكان في ذلك الموضع بيعة (بجوار دير لراهب هناك) فبات لطيب مبيتٍ واقام يومهُ فلم يرَ الّا خيرًا فقال هذا موضع صالح للبناء » اه

وقال بُعَيد ذلك:

[ورُوي] عن عليّ بن يَقطين قال: كنت في عسكر ابي جعفر المنصور حين سار الى الصراة يلتمس موضعًا لبناء مدينة قال: فنزل الدَّير (وكان فيهِ كنيسة او بيعة واجمة اليوم على ما هو مشهور عند النصارى) الذي على الصراة في الشيقة (وكان يدفع ماءهُ في دجلة والصراة من اخر دجلة المحفورة) فما زال على دابّتهِ ذاهبًا جائيًا منفردًا من الناس يُفكّر. قال: وكان في الدير راهب عالم (٣ فقال لي: لمَ يذهب الملك (٤ ويجيء.. قلت: انهُ يريد ان يبني مدينة ».. الى آخر الرواية

---

١) هكذا موجود في النصّين المطبوعين وكلاهما غلط والاصح « وكان عَذِيًا » بياء مثناة تحتيّة بعد الذال المعجمة والمكان العذي هو الطيّب

٢) قصر السلام هو ايضًا غير قصر السلامة. فقصر السلام من ابنية الرشيد بن المهدي بناه بالرقّة رقّة بغداد في الجانب الغربي من المدينة. واما قصر السلامة فكان بناهُ المهدي سنة ١٦٤ في عيساباذ الكبرى اي في الجانب الشرقيّ. واوّل ما بناهُ في عيساباذ قصر من لَبِن الى ان اسس قصرهُ الذي بالآجرّ وكان تأسيسهُ اياه يوم الاربعاء في آخر ذي القعدة وتحوّل اليهِ المهدي سنة ١٦٦ هـ. (٧٨٢م) فلمّا نزلهُ نزل الناس بعيساباذ حوالي القصر فعمرت وبعيساباذ ضرب المهدي الدنانير والدراهم (من الطبري ٣: ٥٠٣ و ٥١٧)

٣) اسمهُ ببغداد كما يشهد بذلك ابن الخازن وابن السيد المكين والسمعاني في مكتبتهِ الشرقيّة في المجلد الثالث في القسم الاوّل في الصفحة ٦٨

٤) وفي الاصل المطبوع: كم يذهب الملد. وهذا لا معنى لهُ وهو من التصحيف الشنيع. وكذا ايضًا ورد مصحّفًا في طبعة معجم ياقوت المصريّة الجديدة

٣ دار سكنى البرامكة

واذ قد عرفنا موقع قصر الخلد . وان البيمارستان العضدي قد بُنيَ على معالمه وان السنّ هو الباقي من تلك المباني الملكية سهل علينا ان نعرف موقع دار سكنى البرامكة ثم موقع قصرهم وهذا هو غير دار سكناهم الأصلي . فنقول :

ذكر ابن الطقطقي في الفخري (في ص ٢٨٧ من طبعة ه . درنبورغ) ما هذا صورتهُ :

« حدث بختيشوع الطبيب قال : دخلت يوماً على الرشيد وهو جالس في قصر الخلد من مدينة السلام وكان البرامكة يسكنون بمذاتهِ في الجانب الآخر (الجانب الشرقي او الرصافة) وبينهم وبينهُ عرض دجلة . قال : فنظر الرشيد فرأى اعتراك الخيول وازدحام الناس على باب يحيى بن خالد . فقال . جزى الله يحيى خيراً تصدّى للامور واراحني من الكدّ ووفّر اوقاتي على اللذّة . ثم دخلتُ اليهِ بعد اوقات وقد شرع يتنيّر عليهم فرأى الخيول كما رآها تلك المرة . فقال : استبدَّ يحيى بالامور دوني فالخلافة على الحقيقة لهُ وليس لي منها الّا اسمُها . قال : فعلمتُ انهُ سيكيم ثم نكبهم عقيب ذلك ». اه حرفهُ

فهذا نصٌّ واضح جليّ على ان دار سكنى البرامكة كان بازاء الخلد في الجانب الشرقيّ من البلدة . لا في الجانب الغربيّ . واما ما جاء في كتاب اعلام الناس للاقليدي (ص ١٣١) من طبعة محمد الزهريّ الغمراوي ففيهِ غلط من الناسخ فقد جاء هناك ما هذا منطوقهُ :

« [قال اسماعيل بن يحيى الهاشميّ : بكرتُ الى الرشيد] وجلست بين يديهِ وكان في محلّ يشرف على الدجلة من شرقيّ مدينة باب السلام (١ وبازائهِ منزل جعفر من الجانب الغربيّ . . . الى آخر الرواية

والاصح «من الجانب الشرقي» والغلط من الناسخ لا من المؤلف وذلك ان الناسخ لمّا رأى ان المكان الذي كان يشرف على دجلة واقعاً شرقي مدينة باب السلام توهم ان ما يكون بازائهِ يكون غربيهُ والحال ان المؤلف في الاوّل يتكلّم بالنسبة الى مدينة باب السلام وفي الثاني يتكلّم بالنسبة الى دجلة . وكما اننا رأينا ان ياقوت والفخري يقولان ان دار سكنى البرامكة كانت في الجانب الشرقي من دجلة ظهر هنا خطأ الناقل او الناسخ فاحفظهُ

٤ قُصور البرامكة

ما عدا دار السكنى كان للبرامكة عدّة قصور وكلها كانت بالجانب الشرقي من

(١ مدينة السلام هي المدينة المدوّرة المستديرة الشكل التي بناها الخليفة المنصور والخلد كان فناؤا في شرقي مدينة باب السلام

المدينـــة اي بالرُصافة ولم يكن لهم قصر واحد في الكَرخ اجلالًا لمقام الخلفاء . واول قصورهم كان التاج. قال ياقوت في ما ذكره في هذه المادة:

« كان اول ما وُضع من الابنيـــة جذا المكان قصر جعفر بن يحيى بن خالد بن برمك وكان السبب في ذلك ان جعفر كان شديد الشغف بالشرب والغناء والتهتُّك فنهاهُ ابوهُ يحيى فلم ينتهِ. فقال: ان كنت لا تستطيع الاستتار فاتخذ لنفسك قصرًا بالجانب الشرقي واجمع فيهِ ندماءك وقيانك وقضِّ فيهِ معهم زمانك وابعد عن عين من يكره ذلك منك. فعمد جعفر فبنى بالجانب الشرقي قصرًا موضع دار الخلافة المعظمة اليوم واتقن بناءهُ وانفق عليهِ الاموال الجمّة . . . » اه

ويُظن ان بقايا التاج تُرى الى اليوم وهي القلعة التي تُستودع فيهـــا المدافع وما يرجع من الادوات الى الجنود الحربيين

ثم لما اخذ الخلفاء هذا القصر ابتنى لـــهُ جعفر قصرًا آخر بالرصافة ايضًا لكن في اعلاها . اعني في جوار الشمّاسية التي تسمّى اليوم السُلَيخ . وهـــذا ما يؤخذ من كلام الطبري. (٣: ١٧٣٠) الذي يذكر هناك قصرًا لجعفر المذكور . والى اليوم يُشاهد في السُلَيخ (والعامة تقول الصُلَيخ بالصاد) آثار لهذه الابنية القوية

وكان للفضـــل بن يحيى البرمكي قصر في سُوَيقة خالد بباب الشمّاسية لسمهُ : « قصر الطين » وقد خرب اتمّ الخراب فلا يُعرف لـــهُ موضع . راجع ياقوت في سُوَيقة خالد . وقد تمّ خرابهُ سنة ٢٥١ هـ. (٨٦٥م) على ما ذكرهُ الطبري (٣: ١٥٦١) حين أمر محمد بن عبدالله الصريخ بجعل الآجرّ من هذا القصر ونواحيهِ الى باب الشمّاسيّة وهذا القصر كان قد بناهُ يحيى لابنهِ الفضل . قالهُ ياقوت ايضًا في مادّة « قصر الطين »

وربما كان لهم غير هذه القصور (١ . وعدم الوقوف عليها وعلى اسمائها لا يُعدّ من القصور . لان علم المرء محصور . وعلم ربّك يفوق كل ما في الصدور . والسلام

---

١) مثلًا انهُ كان للبرامكة محلّة منسوبة باسمها وهي : « البرامكة او البرمكيّة » فلا جرم ان البرامكة بنوا فيها اولًا قصرًا ثم بنى الناس حولهُ المباني فتألف من ذلك محلّة كبيرة . وقيل انها كانت قرية قريبة من بغداد . راجع معجم ياقوت في هذه المادة . كما انهُ كان لهم سُوق يُعرف باسم « سوق يحيى » وقد حدث السوق بعد ان انشأ فيهِ يحيى قصرًا . وكان ايضًا بالجانب الشرقي بين الرصافة ودار المملكة التي كانت عند جامع السلطان بين بـــابين الزاهر على شاطئ دجلة وكانت اقطاعًا لهُ من الرشيد ثم صارت بعد البرامكة لامّ جعفر ثم اقطعها المأمون طاهر بن الحُسين بعد الفتنة ثم خربت عند ورود السلجوقيّة الى بغداد . فلم يبقَ منهـــا اثر البتة . وهي محلّة ابن الحجّاج الشاعر . وقد اكثر من ذكرها في شعرهِ . راجع ياقوت في سوق يحيى

الدم : تركيبهُ وخواصُّهُ

للاب بولس بوفيه لابيار اليسوعيّ مدرّس الكيميا في المكتب الطبّي

الكريّات الحمراء (تابع)

دعا العلّامة لوثنهوك (Leuwenhoeck) الدقائق الصابغة للدم (hématies) التي اكتشفها بالكريّات الحمراء (globules rouges) وفي تسميتهِ هذه نظرٌ لانَّ هذه الدقائق ليست كرويّة الشكل كما توهّم لضعف ادواتهِ الرصديّة بل هي مستديرة مفلطحة كالاقراص وقد تحقّق العلماء ذلك برصود تاليـة أجروها بادوات محسّنة . وفي وجهَي هذه الاقراص تقعير خفيف كهذات النظّارات التي يستعملها الحُسر اي ذوو البصر القاصر (myopes) . (اطلب الشكلَين ١ و٢)

وان فحصت دمـاء الحيوانات ذوات الثدي اي ذوي الفِقَرات الاحياء المواليد وجدتها كدم الانسـان في صورتها المستديرة وتقعير وجهَيها اللهمّ الّا الجمل واللاما (lama) الذي يشبههُ فانَّ دقائق دمهما على شكل دائرة اهليلجيّة محدّبة الوجهَين كنظّارة الشيوخ ذوي البصر البعيد (presbytes) . وما تتّفق فيهِ كلّ دقائق الدم في ذوات الثدي على اختلاف صورتها من تقعّر او تحدّب أنها بلا استثناء خلايا ناقصة للطوّط من النواة . وعلى عكس ذلك دماء ذوات الفقار المتولّدة من البيضة كالطيور والضفادع والاسماك فانَّ دقائق دمها مستديرة مفلطحة محدّبة كدم الجمل واللاما لكنها ذات نواة كالخلايا التامّة

قلنا انّ الكريّات الحمراء هي التي تصبغ الدم بحمرتهِ القانئة . لكنك ان فحصت كل دقيقة منها على انفراد مستشفًّا لها وجدتها شفّافةً صفراء ممتزجة بخضرة خفيفة واذا كثرت هذه الدقائق ظهرت حمرتها بانعكاس النور

ومن خواصّ هذه الدقائق الحمراء أنها غاية في الدقّة والصغر فان قطرها في دم الانسان لا يتجاوز سبعة ملّمترات الملّمتر وسمكها ملمتران من اجزاء الملّمتر . اعني انهُ يقتضي ان يوصل بين ١٥٠ من هذه الدقائق ليحصل منها ملّمتر واحد وان يُركّب منها ٥٠٠ اكداسًا على بعضها ليبلغ طولها ملمترًا . وان رقبت دماء حيوانات شتّى وجدت لدقائق كل حيوان قيسةً مختلفة لكنّها ثابتـة في دم الحيوان وليس نسبة بين هذه

الاقيسة وحجم الحيوان فانهـا. مثلًا اصغر في دم البق (٥ ملمترات) من الفارة (٦. ملمترات) . وهي في الفيل لا تتجاوز ٩ ملمترات. وتبلغ في الضفدعة ٥٠ ملمترًا وفي عُلجوم بلاد دلماطية مئة ملمتر وتُرى بالعين المجرَّدة. واصغر ما يُعرَف منها في دم عنز المسك في بلاد جاوة (Protée) فانَّها لا تزيد على ملمترين

وممَّا لحظهُ ارباب الطبيعة انَّ كريَّات الدم تصغر مع زيادة عددها بنسبة خفَّة الحيوان ولذلك ترى دقائق الدم في الحيوانات ذوات الثدي الخفيفـة الجري والحارَّة الدم اصغر جدًّا من دقائق الحيوانات الهادئة والباردة الدم كالضفادع والزحَّافات. وعلى هذا النمط تجد كريَّات الدم في الحيوانات من ذوات الثدي التي تنـام في فصل الشتاء كاليربوع (marmotte) والقنفذ اكبر من سواها

واعلم انَّ تعريف هيئات كريَّات الـدم الحمراء وأحجامها لَمن الامور الصعبة ليس فقط لصغر دقائقها بل لمـا يعتريها من التغيير عند خروجها من الشرايين والاوردة. فتلاشي استدارتها وتتثلَّم بحيث تفسد بعد قليـل فلا تُعرف حقيقتها. وفي المختبرات المدارسيَّة طرائق خصوصيَّة لدرس هذه الدقائق الدمويَّة في حالتها الطبيعيَّة السليمة

وما قلناهُ سابقًا في خواصّ دقائق الدم الاحمر قد تبيَّنهُ الفسيولوجيُّون في الـدم بعد خروجهِ من العروق. وقد اكتشفوا لهذه الكريَّات خاصَّةً أُخرى طبيعيَّة معتبرة عند ما تسيل في شرايين الحيوان تزيد المرونة. فان شئتَ ان تتحقَّق ذلك عليك بجهر لترقب به الغشاء الشفَّاف الذي يجمع بين اصابع الضفدعة الحيَّة (الشكل ٣) فترى اذ ذاك الكريَّات الحمراء السائلة بدورة الدم تتمدَّد وتنضغط لتجري في تجاويف العروق الشعريَّة وهي مجارٍ يكون قطرها في بعض المنافذ اصغر وادقّ من قطر كريَّات الدم. فيرى الراصد هذه الكريَّات وهي تندفع بحركة الدورة فتتزاحم وتتسابق وتنضغط ليمكنها الدخول في تلك المجاري. وربَّما زادت مزاحمتها فاختلطت بعضها وسكنت حركتها الى ان ينفتح الطريق امامها فيزحف بهـا السيل ويجرفها فتعود هذه الدقائق الى صورتها الاولى المستديرة. وكريَّات الدم البيضاء مرونة كمرونة الكريَّات الحمراء واختلاف في الهيئة والصورة كما سترى والفرق بينهما انَّ هـذا الاختلاف ليس هو ذاتيًّا في الكريَّات الحمراء بل هو مفعول الدورة الدمويَّة لا يمكنهـا ان تغيِّر من ذاتها هيئتها المستديرة على عكس الكريَّات البيضاء. فانَّ حركتها ذاتيَّة من طوع نفسها

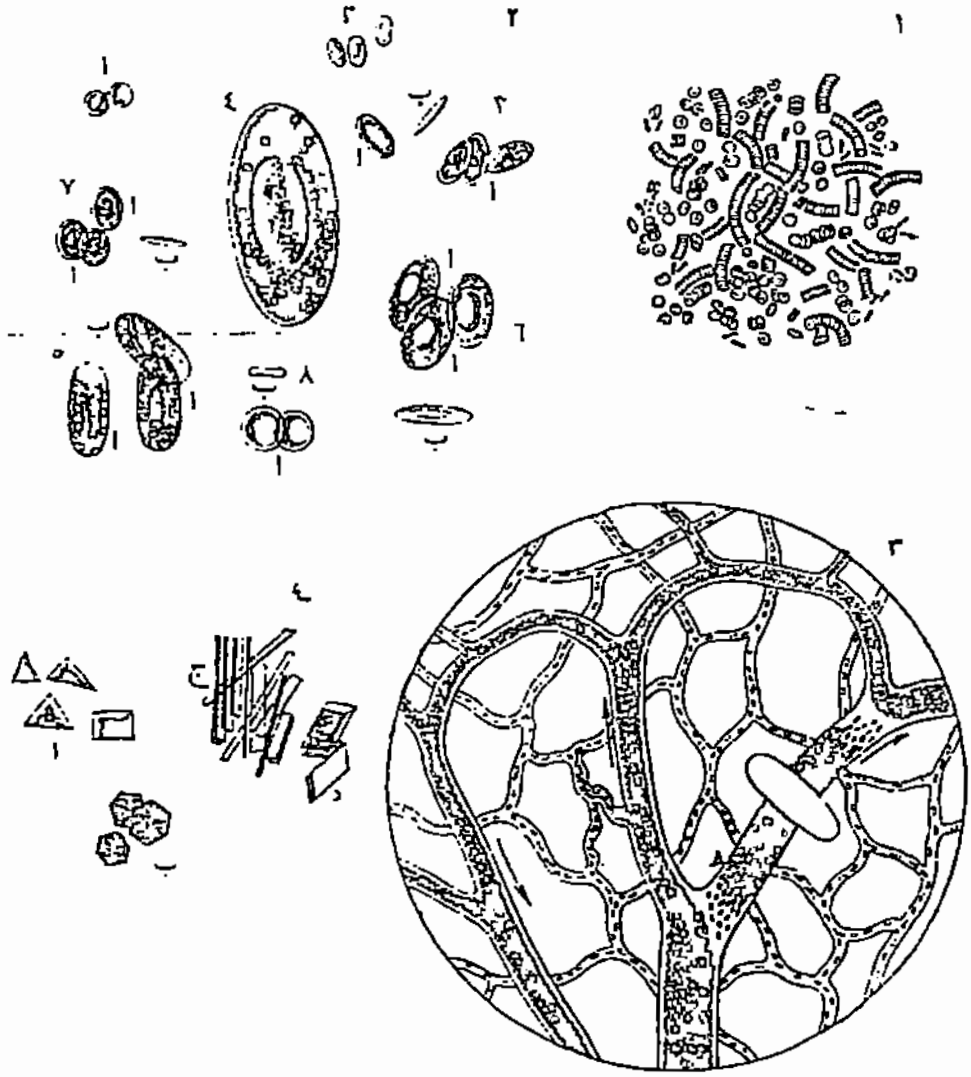

١ كريّات الحمراء منضّدة أكداساً في دم الانسان

٢ صور شتّى للكريّات الحمراء: ١ دم الانسان ٢ الجمل ٣ الحمام ٤ البتر الماوي
٥ وزغ البحر ٦ الضفدعة ٧ الكوبيبس ٨ الحنكليس البحري
ا صورة الكريّات في وجهها ب صورة الكُرَيّات عن جانبها

٣ دورة الدم في العروق الشعريّة

٤ تبلورات الهيموغلوبين: ١ في خنزير الهند ب في السنجاب (القرقدان) ج د في الانسان

وللكريات الحمراء ما عدا هذه الخواصّ الطبيعيّة خصائص أُخرى كيماويّة اجدر بالاعتبار ولبيان ذلك نصف هنا تركيبها . تتركّب هذه الدقائق جوهريًّا من عنصرين الاوّل منها زجٌّ زلالي لا لون لهُ عليهِ قوام الكريات الحمراء يُدعى الغلوبولين (globuline) اي الحُبَيبة الصغيرة . وتمتزج هذه الكريّات بمادّة اخرى زلاليّة ايضًا لكنّها حمراء يدعونها هيموغلوبين (hémoglobine) اي الحَبيبات الصغيرة القانئة . وهذه المادّة من اجود عناصر الدم ولعلّها اكرمها واجلّها

وحُبيبات الهيموغلوبين في الدم الجامد تبلغ في الكميّة تسعة اعشار الكريّات الحمراء . وتركيبها الكيموي غاية في الارتباك لتعدُّد عناصرها ففيها اجزاء من عناصر الكربون والهدروجين والاكسيجين والازوت والكبريت والفسفور مع قليل من الحديد وهو الحديد الذي يصبغها بلونها الاحمر ويجدها خاصّتها الاوّليّة اعني جاذبيّتها لعنصر الاكسيجين . وهذه الخاصّة تُعلّل المفاعيل الطبيّة التي للهيموغلوبين في الجسم وبناء على هذه المفاعيل يصف الاطبّاء الادوية التي يدخل فيها شيء من معدن الحديد للمصابين بالهزال وضعف الدم

ويُمكن ان تُفرز مادّة الهيموغلوبين وتُستخرج من الدم اما بواسطة الاثير او باستعمال الكحول فاذا افردتها ظهرت اذ ذاك على اشكال تبلورات بديعة ذات لون احمر غامق تختلف صورها على اختلاف الحيوانات التي منها استُخرج . فتكون هذه التبلورات من دم الانسان على هيئة منشورات مسدّسة الوجوه منبسطة كالالواح او مستطيلة كالابَر . ولولا الهيموغلوبين لما استطاعت الكريّات الحمر ان تقوم بوظيفتها وهي ان تزوّد كلّ عناصر الجسم الحيّ بنصيبها من الاوكسيجين

وان سألتَ كيف يتمّ ذلك ؟ اجبتُ بالتنفُّس . فانّ الانسان ومثلهُ الحيوان اذا تنفّس فتحت عضلاتهُ قفصَ الصدر فتمدّدت الرئتان وهجمت دقائق الهواء اليهما لتشغل المكان الفارغ منهما . وهناك يتلاقى الهواء الخارج مع الدم السيّال بعد دورتهِ في الجسم وخلوّهِ من الاوكسيجين ونقلهِ للحامض الكربونيك السامّ (CO^2) الذي تخلّصت منهُ خلايا البدن . وليس في تلك الملاقاة فاصل يفصل الهواء والدم الّا جُليدة رقيقة كالقشرة ففي خلال هذا الفشاء يحصل بينهما تبادل متضاض . فانّ الدم ينفي عنهُ الحامض الكربونيك الذي كان متحلّلًا في مادّتهِ الآحيّة المدعوّة بالبلاسما (راجع ص٢١٢)

فيخرج هذا الغاز ويختلط بالهواء الذي هو في قعر الرئة ثم يخرج معهُ الى الخارج ويتلاشى في الجوّ . وعلى عكس ذلك تصير مبادلة أخرى في خلال تنفُّس الحيوان ودفع نفَسهِ فانَّ قسماً من اوكسيجين الهواء الذي دخل في الرئتين ينفذ في الغشاء بقوَّة الهيموغلوبين التي تجذبهُ اليها وتمتصُّهُ برغبةٍ . وهذا الاوكسيجين اذا دخل في الدم امتزج بالهيموغلوبين واحدث معها مركباً جديداً يدعونهُ لذلك اوكسيهيموغلوبين (oxyhémo-globine) . وهو مركب احمر وانما حمرتهُ اشدّ واقتاً من حمرة الهيموغلوبين التي هي عادة حمراء كمدة . فاذا حصل الامتزاج المذكور تغيَّر لون الدم فيصير احمر قانياً بعد كمدتهِ وفي ذلك دليل ساطع على ما اصابهُ من التصفّي والإصلاح

وان أردت ان تعاين بالنظر ما يحصل في الرئتين من الاستحالة العجيبة والتبادل بين الدم والهواء فذلك امر قريب المنال سهل الاختبار فحلّل في الماء قليلاً من الهيموغلوبين ثم أجزْ في هذا المحلول مجرًى من الاوكسيجين تَرَ للحال لون الهيموغلوبين يخلص ويصفو وتختلف كمدتهُ الى احمرار قانٍ فاقع دلالةً على انَّ السائل امتزج بالاوكسيجين واستحال الى اوكسيهيموغلوبين بيد انَّ هذا التركيب ليس بثابت فان اردت فكَّهُ كفاك ان تُفرغ الاناء من الهواء المحيط بهِ بالآلة المفرّغة فيتطاير الاوكسيجين وتعود الهيموغلوبين الى لونها الكمد . وهو برهان قاطع على ضعف التركيب

فلنعتبرنَّ الآن الكريات الحمراء بعد نوالها في الرئة قسماً من اوكسيجين الهواء فانها تسيل عائدةً الى القلب الذي يدفعها بخفقاتهِ القويَّة الى كل اعضاء الجسم لتغذيها فتجري دائرةً من الشرايين الى العروق الصغيرة ومن العروق الصغيرة الى العروق الشَّعريَّة ذات الدقَّة البليغة . وفي دورتها هذه تمسُّ كل انسجة الجسم وتغذيها بما تحتاج اليهِ من الاوكسيجين مادَّة حياتها ولولا هذا العنصر لضعفت وماتت . اما الاوكسيهيموغلوبين فانها بعد توزيعها على الانسجة ما اذخرتهُ من الاوكسيجين تعود الى كمدتها والى حالة الهيموغلوبين وتسير من عروقها الى القلب والقلب بنبضاتهِ الشديد يدفعها ثانيةً الى الرئتين لتنال مماسَّة الهواء حصَّة جديدة من الاوكسيجين الحيي فتعود الى توزيعها على الخلايا وهلمَّ جرًّا

فترى من ثمَّ ما هو فضل الهيموغلوبين في جسم الحيوان فانها كالمركب النقَّال لا تزال دائرةً بدقائقها المتعدّدة تحملها غاز الاوكسيجين لتنقلهُ الى الانسجة والخلايا

الثابتة البعيدة عن الهواء فتموتها بهذه المادة المنقولة . واذا ما حصل في دوران هذه المادة خللٌ فانَّ الحياة في خطر مبين . فهب مثلاً انَّ القلب يكفُّ عن نبضانه او انَّ احد الشرايين ينسدّ او ينفجر منهُ الدم الى الخارج فذلك الاختناق وموت كلّ الخلايا ان لم يُعد الدم الى دورته القانونيَّة

*

على انَّ الهيموغلوبين مع خواصها العجيبة وخدَمها المتعدّدة مشوبة بنقص عظيم ربَّما كان سبباً لطوارئ مفجعة وذلك حرصها على غاز يُدعى اوكسيد الكربون اكثر من شهوتها لغاز الاوكسيجين . اما اوكسيد الكربون (CO) فهو الغاز القتَّال المتطاير من مستودعات الفحم التي لا يجري اليها الهواء الكافي . وهذا الغاز من اسوإ الغازات واضرّها فان وُجد منهُ كمّية زهيدة في الهواء كقسم اوقسمين في المئة فهو كافٍ لتسميم من يستنشقهُ . ويزيد ضرَّهُ انهُ خلوٌ من الرائحة المنبئة بانتشارهِ واذا دخل في رئة الحيوان امتزج بالهيموغلوبين امتزاج الماء بالراح بحيث لا يمكن فصلهما فتتسارع كل الكريّات الحمراء الى الرئتين وتتسمَّم باستنشاقهِ ولا تعود تصلح لنقل الاوكسيجين مورد الحياة ثم لا تلبث انسجة الجسم بعد قليل ان تتسمَّم بهذا السمّ الذعاف فتمتصُّهُ من الهيموغلوبين بدلاً من الاوكسيجين فتهلك

امَّا علاج المسموم باوكسيد الكربون فبأن تفصدهُ بسرعة وبذلك تنجيهِ من الكريّات الحمراء التي فسدت ثمَّ تعمد الى رجل آخر سليم الدم فيُعطى المسموم قسماً من دمهِ . وهي عمليَّة صعبة وربما تأخرت قليلاً فلا تجدي نفعاً

واعلم انَّ الحيوانات غير ذوات الفقار كالديدان والحشرات والحيوانات الهلاميَّة خالية من كريّات الدم الحمراء وكلّ كريّاتها بيضاء . امَّا الاوكسيجين الذي تحتاج اليهِ فتنالهُ من الهيموغلوبين المتحلّة في مادَّتها الآنيَّة وهي عبارة عن سيَّال احمر تسبح فيه الكريّات البيضاء . ومثال ذلك الديدان وبعض الحيوانات الصلبة الجلد . او يقوم فيها مقام الهيموغلوبين عنصرٌ آخر شبيه بهِ يُدعى هيموكيانين (hémocyanine) يشتهي مثلها الاوكسيجين ويمتصُّهُ لكنهُ خلوٌ من معدن الحديد وفيهِ بدلاً منهُ شيء من النحاس . وتكون اذ ذاك المادَّة الآنيَّة صرفةً لا لون لها او يضرب لونها الى زرقة خفيفة كما ترى في السرطان

*

هذا نظرٌ عامٌ في الكريّات الحمراء وخواصها يبين ما تلعبهُ فينا هذه الدقائق من الدور المهم مع صغرها. واليها تُنسب تلك الخصائص المعتبرة التي عرفها البشر منذ خوالي الاعصار. وعددها في جسم الانسان لا يكاد يُحصى قيل انَّ معدلها في الانسان البالغ لا يقلّ عن ٢٥,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ كريّة. على انَّ هذا العدد يختلف اختلافاً كثيراً على اختلاف حالة الانسان من صحّة او ضعف. من مقام طيّب الهواء مرتفع او سافل قليل الارتفاع. ومما اختبرهُ الاطبّاء انَّ الرجل الذي يسكن في علوّ ١٥٠٠ متر مدّةً يتزايد عدد كريّاة الحمراء الى ٥,٥٠٠,٠٠٠ اعني من سبع كريّات الى ثماني في كلّ ملّمتر مربّع من جسمهِ. ومن هنا ترى سبب وصفة الاطبّاء لبعض الناقهين او الضعيفي الدم بان يتعالجوا بسكنى الجبال العالية حيث الهواء اغنى بعنصر الاوكسيجين

وعلى خلاف ذلك يخفّ عدد هذه الكريّات الحمراء في بعض العاهات كالسلّ وداء السرطان والانيميا حتى يصير الى نصف عددهِ القانوني فتقلّ شهوة المريض الى الطعام لقلّة الاوكسيجين الذي يلزمهُ للغذاء فيزيد ضعفهُ ولا يقوى على مرضهِ فيموت. وهذا ما يدعو الاطبّاء اذا ارادوا تشخيص مرض ان يحصوا في دم المريض عدد كريّاتهِ الحمراء بادوات معلومة يدعونها مولزين الدم (hématimètres) لتُطلعهم على حقيقة حال المريض فان وجدوا زيادةً في كريّاتهِ الحمراء تفاءلوا بشفائهِ

ومما لم يتحقّقهُ العلماء من امر هذه الكريّات الحمراء تولُّدها وآخرتها. والشائع اليوم انَّ الكريّات الحمراء هي في الاصل كريّات بيضاء. تفقد نواها وتصطبغ بالحمرة وتتفرّد لتقل الاوكسيجين. وهو رأي كان ذهب اليهِ البعض اولًا ثمَّ أُهمل واليوم عاد العلماء فأيّدوهُ بادلّة جديدة. وهم يزعمون انَّ تحوّل الكريّات البيضاء الى كريّات حمراء يتمّ خصوصاً في مكاك العظام الاحمر وفي الطحال. اما موت هذه الكريّات الحمراء بعد ضعفها فيزعمون انهُ يجري في الطحال والطحال يعمل فيها حتى يبيدها ويحوّلها الى كريّات أُخرى جديدة بامتصاص ما فيها من الهيموغلوبين. ويفرز قسماً منها في مادّة البلغم الملوّنة وفي بعض مركّباتها كالبيليروبين (bilirubine) والبيليفردين (biliver-dine). اما الحديد الموجود في الكريّات الحمراء فانهُ لا يتلف بل يعود فيدخل في كريّات أُخرى ليقوّيها

(لهُ بقيّة)

أثران لارسطو الفيلسوف في العربيّة

نشرهما الاب لويس شيخو اليسوعي

٢ رسالة ارسطاطاليس للاسكندر في السياسة

هو الاثر الثاني المنسوب لارسطاليس الذي نتناولهُ عن النسخة الخطيَّة الواتيكانية (راجع الصفحة ٢٧٢) وفيما كنَّا نبحث عنهُ في المخطوطات والمطبوعات التي في مكتبتنا الشرقية اذ علمنا ان احد العلماء الالمانيين قد نشرهُ دون الاثر الاوَّل في برلين سنة ١٨٩١ فتوقَّفنا عن نشره ريثما نطلب منهُ نسخةً فوردتنا في الاسبوع الماضي فقابلناها عليها نسختنا زيادةً لضبطها ولاصلاح ما ورد من الاغلاط في الطبعة البرلينيَّة. وهذا عنوان الرسالة المطبوعة في برلين:

De epistula pseudaristotelica περὶ βασιλείας commentatio. Dissertatio inauguralis... quam publice defendit J. Lippert.

امَّا التعجب من مناقبك فقد نسخهُ (١ تواترها فصارت كالشيء القديم قد يُنسى به (٢ لا كالبديع (٣ يُتعجَّب منهُ واماَّ السرور بما يحدث لك ولا نخلو منهُ اذ كنَّا نعتدّ (٤ بسعادة جدك واذ كنت (٥ كما تقول العامَّة: «لا يكذب المثني عليك» وقد انتهى الينا انك بعد الواقعة الكائنة لك ببابل وظفرك بدارا ومَن لحق بهِ وما ركبتَ من أهوال تلك الحروب وكابدت من شدائدها استأنفتَ اشغالًا أُخر بامور سموتَ لها وتطلَّعتَ اليها. فقد ينبغي لك قبل ذلك ان تفرغ نفسك للنظر في مصلحة امور المدن وتقويم سُننها فان هذا امر كبير يجب عليك النظر فيهِ ويُذهب لك الصوت والذكر الجميل فقد تعلم ما نال من ذلك لوقُرغس (٦ بتقويمهِ سُنن مدينتهِ وعلى حسب سعة ملكك وعدد مدائنك سيكون فضلك على من اصلح مدينة واحدةً وبقاء الذكر والثناء لك الَّا انَّ (٧ اقامة السنن صلاح العامَّة ودوام السلامة والمدّ في الرعيَّة. وقد ظنَّ كثير من الناس انهُ انما يُحتاج الى المدبّر القائم بالسنَّة في الحرب فاذا انقضت الحروب واستفاض الامن والسكون استُغني عنهُ. والذي صيَّرهم الى ذلك ظنُّهم بان

١) روى صاحب الفهرست (ص ٣٤٧): فسخهُ
٢) ورواية الفهرست اضبط: أنس
٣) في الفهرست: كالحديث
٤) في الفهرست: تقرُّ
٥) في الفهرست: وانت
٦) وفي الاصل: لوقراغس
٧) والصواب: لأن

الاستمتاع بالخيرات منهل ممكن لافناء الناس وان معاناة الشدائد الصعبة لا يقوى عليها كل احد

ولستُ ارى هذا صواباً بل الصواب عندي خلافهُ وذلك ان الناس اذا جرّبتهم الشدائد تحنّكوا وتيقّظوا لما فيهِ مصلحتُهم فاذا اظلّتهم الاهوال تحرّكوا فيما يدفع ذلك عنهم واذا صاروا الى الأمن مالوا الى الشرّة (١ والفساد وخلعوا عذار التحفظ وما اعسر ان تكون مع رخاء البال صيانة العقول بل قد يذهب ذلك بالعقل كثيراً ويذهلهُ فاحوج ما يكون الناس الى السنن اذا صاروا الى الخفض والدّعة فانهُ ان كانت الحروب قد تحدث فيها الأحداث فان ذلك يحدث والناس متحفّظون حَذرون قاما في حال الخفض فتحدث أحداث كثيرة والناس قارّون مُهملون لامرهم وعند ذلك يحتاج العامّة الى الادب والسنّة . والسنّة انما تكون سُنّةً اذا عُمل بها وانما يعمل الناس بالسُّنّة اذا كان لهم مدبّرٌ يحملهم عليها وانما يقوى على ذلك من كانت رئاستهُ سنيّة اجماعيّة ولم تكن رئاستهُ فتة واغتصاباً فليس الاستمتاع بالهدوء والخفض مما يحتملهُ كل احد كما ظن هولاء ولو انهُ كان ذلك كذلك لوجب على الآباء ان يُملّكوا ابناءهم اموالهم من اوّل نشئهم . فكما انهُ لا ينبغي ان تُفوّض الاموال الى الصبيان كذلك لا ينبغي ان تفوّض الامور الى العامّة فان أخلاق العوام شبيهة باخلاق الصبيان وكلا الصنفين يحتاج الى الرقباء والمدبّرين

والعبرة في ذلك ايضاً قد تُرى من تصرّف الاحوال وتنقّل الدول فما بال الرئاسات لا تثبت وتدوم لصنف واحد وفي مدينة واحدة كالذي رأينا من نقلها في بلاد آسية وفي بلاد اور (٢ وفي غيرها من المدن فقد ملك اشور (٣ حيناً لاهل الشام وسوريّة ثم خلف بعدهم اهلُ ماه ثم خلف بعد هولاء اهل فارس وكذلك تجدهُ في سائر الامم . فالقلة (٤ في هذا كلهِ واحدة هي التي ذكرنا من ان التقلّب في الخيرات اصعب من مقاساة الشرور وكذلك ما تجد الذين نالوا الرئاسة بنصب ومشقّة ثم زيدوا فيها شيئاً بعد شيء قد حنّكتهم وثقّفتهم التجارب اكثر ذلك ما تطول مدتهم ويزول

---

١) كذا في الفهرست وفي الاصل: الشره

٢) كذا في الاصل . والصواب: اورني او اوروبا

٣) كذا اصلحناها وفي الاصل: آسية ٤) في الاصل: كالقلة

الى السعادة وحسن العاقبة امرهم وتجد الذين نشأوا في الخفض ووافتهم الامور عفواً فلم تُصبهم شدة ولم يَنهم خوف يصيرون الى ضدّ ذلك . وكذلك ترى المدائن تعمر وتعظم بالمشقّة والنصَب وتصير الى الخراب والبوار بالرفاهية والخفض داعيةً الى البطالة والناس في اكثر ذلك مائلون الى البطالة مستلذّون بها . وذلك انهم يكرهون الادب والسيرة الحسنة هرباً من المشقة ويؤثرون الفراغ والبطالة طلباً للتودّع ويفنون اعمارهم في طلب اللعب الى الشتوة وليس يكون مع البطالة وتعطيل الادب بقاء ملكٍ ولا ذبٌّ عن حريم ولا صلاح عامةٍ

فالامر على ما وصفت اولاً من الحاجة الى سُنّةٍ مقوّمة ومدبّر يقوم بها فيحمل العوامّ على حسن السيرة . اما اهل الدناءة ولؤم الطباع فبالحياء . وكيف تكون سنّة عامّة الّا بمدبّر عامّ ومَن الذي يجمع الناس على الالفة والاستقامة وينصر السنّة ويقيمها الّا رجل لهُ قدر كبير وقدرة ظاهرة تكون في مصرٍ عظيم فيكون ظهيراً للسنّة ورباطاً للألفة فبمثل هذا الرجل يُقدَر على استدامة حسن السيرة في المدن وتَنفي الفواحش عنها وليس تصلح المدن الّا بصلاح الرؤساء والمدبّرين .

وينبغي ان يكون هذا الرجل جزلاً كاملاً ليس في الشجاعة والعدل واصناف الفضائل فقط ولكن في القوّة والعدّة ايضاً ليقوى على ضبط العامّة وحَملهم على السُّنّة فان كثيراً من العوامّ لا يُذعن للعدل ولا ينقاد للحق فاذا لم يكن عليهم خوف مالوا الى البطالة وتعطيل السنّة فلا بد من مدبّر جامع يجمع امر العالَم كهؤلاء سيّما اليافة (١ ومدائنها فانها قد اتّصلت كلُّها مدينة واحدة وليس يزكّى صلاح المدائن الّا من صلاح الرؤساء والمدبّرين كالذي (٢ رأينا في مدائن لقذيونة (٣ واثيناس فانهُ كان في بعضها ملوك جبابرة وضموا سنناً وفي بعضها قوّامٌ عدولٌ فبُنيت لذلك هذه المدائن وبَعُد صوتها وكذلك المدائن التي دخلها الخلل والفساد والانتشار انما أُتيت من سوء اثر الرؤساء والمدبّرين فصرفوا همّتهم الى اللذّات الزمنيّة فأهملوا التدبير الباقي اثرهُ وذكرهُ على وجه الارض الى الدهر . فقد ينبغي للمدبّر ان لا يتّخذ للرعيّة مالًا

١) في الاصل : الاذة
٢) وفي الاصل : كالذين
٣) وفي الاصل : مدعوته

ولا مأكلاً ولا قنيـــة ولكن اهلاً واخواناً وان لا يرغب في الكرامة التي من العامّة كرهاً ولكن في التي يستحقّها بحسن الاثر وصواب التدبير

وقد يحتاج المدبّر الى ان يجتمع لـــهُ امران هما من اعظم الامور خطراً واكبرها قدراً وذلك لأن يكون محبّباً الى العامّة متعجّباً منهُ عندهم وكلُّ المدبّرين يحبون ان ينالوا ذلك ولكنّهم قلّما ينالونهُ بل قد يصيرون من العامّة الى خلاف هذين الامرين من البغضة لهم والازراء بهم . وذلك انهم يريدون ان يستأثروا بالمنافع وينفردوا بحسن الحال ويحبُّون ان لا يشركهم في ذلك احد ولا ينافسهم فيهِ كبير فهذا يقع عند العامّة موقع الاساءة تنزل بهم والمكروه الذي لحقهم فيحدث لهم من الحنق عليهم وسوء الراي فيهم وما (١ يظهر خشعهم (٢ ودناءة طمعتهم وما يصيرهم الى الاستخفـــاف بهم والازراء عليهم

فقد يحتاج مَن تقلّد الرئاسة الى ان يجتمع لهُ هذان الامران وبهما ينال حقيقة الرئاسة وفضيلتها حتى تنقاد لهُ العامّة وتُعطيهُ الطاعة فاذا خلا منهـــا ازدراه الناس ولستخفوا بـــهِ وشنأوهُ ووثبوا عليهِ . وقد رجوتُ ان تجتمع لك هاتان الخلّتان ولست اقول هذا لمن يتملك امرًا لا يستحقه بل ارى من تكلّف مثل هذا القول بالمدينة اولى منهُ بالحمدة

ولا يغضبنّك على رعيتـــك ان يبلغك ان فيهم من يحاربك (٣ في مساعيك او يطمع في ان يساويك في قدرك وهمّتك ما لم تظهر معاندة لك فانـــهُ ليس من الحزم منافرة العامّة وهذا انما يكون في خواص من الناس تنزع بهم اليهِ أخطارٌ وهمم شريفة وبلاء جميل قد تقدّم لهم فخير الاشياء لهم . ولك فيهم ان يظهر فضلك عليهم وعلى الناس عامّة حتى تغلبهم على الامر الذي تأفوك فيـــهِ ويجوز الشيء الذي تازعوك اياه فيذعنوا لذلك معترفين بفضلك مقرّين بسبقك . ولا ينبغي لمن تمسّك بالعدل ان يخاف احداً فقد قيل «ان العدول لا يخافون الله» اي لا خوف عليهم منهُ اذا اتّبعوا رضاه وانتهوا الى امره . وقد اعرف ان سجيتك التشكّل باشكال مختلفة من عدلٍ وافضـــال ولين

---

١) والصواب « ما » بحذف حرف العطف

٢) كذا في نسختنا وقد قرأ الدكتور ليبرت « خشعهم » واصلحها بخُشْنهم . وظنّ ان الصواب « جشعهم »

٣) ولعلّها : يحاربك

وغلَطة وهذا مما يصيّر العامة الى التعجّب منك ولاسيما اذا تأمّلوا مخارج تدبيرك وعواقب افعالك فان الامل منهم يقوى في دوام ملكك وصلاح البلاد بك. واعرفك مع ذلك شكس القياد (١ للوشاة ولا محبّ للتقرّب بالباطل وذلك منك خير نافع للعامة ولاسيما افاضلهم واهل الحجى منهم. ثم ظنّي بك انك تحب الكرامة لاسيما من اهل القدر والمروّة وان تنال ذلك منهم من جهة الحياء لا من جهة الخوف. وذلك يستحكم لك بان تؤثر من اكرمك بالتملّق لك والتقرب اليك. فاما النظر في كل شيء يرتفع (٢ اليك والتفتيش عن كل امر يتّصل بك حتى تعرف حقه من باطله ففيه مشغلةٌ لك عن امرك وليس فيه جسمٌ للوشاة عنك ولكن تجسم (٣ ذلك ان تنكّل بمن عرفته بهذه الطعمة وتحلّ به العقوبة والقسوة الثقيلة فيكون ذلك موعظة لمن سواه ومكسرة لغيره عن مثل ما دخل فيه

ومما اراهُ صلاحاً لامرك وسبباً لبقاء الذكر لك ان ترجع (٤ اهل فارس عن مواضعهم فان ذلك عدلٌ فيهم ومن العدل ان تفعل بالمرء مثل ما فعل فان استقامة العامة ورسوخ الهيبة في قلوب الخاصة حتى يجتمعوا لك (على) الطاعة امرٌ عسرٌ لا يستحكم الّا في دهر طويل وقرون متوالية وان هم وجدوا غرّةً وامكنتهم فرصة وثبوا عليها ووجدوا من يساعدهم فيها. ومن الحزم الاحتياط في دوام الاستقامة والامن من الهيج والفتنة

وقد ينبغي لك مع كثرة آثارك وتظاهر افعالك ان تجسم ذلك بحسن الاثر في مصلحة المدائن وذلك يكون باجتماع امرين هما حسن الحال وعدل السيرة واجتماع هذين يكون فيه صلاح المدائن واستقامتها فان افترقا كان احدهما سبباً للتلذّذ والتنعم في فساد وتهتّك وكان الاخر سبباً للتعنف وحسن الطريقة في نصَب ومشقة. فقد ينبغي لمن اراد جزالة الملك وكبر قدره ان يتأتى لاجتماع هذين الامرين مع تحرّي العدل. وقد تخيّل لي ان في كل امرٍ فاصلٍ (٥ فعلين او عملين احدهما اكتساب ذلك الامر والاخر استعماله

---

١) وفي الاصل: « سلس القياد » وهو غلط قد اصلحهُ ليبرت: « لا سلس القياد »

٢) والصواب: فيرتفع

٣) كذا في الاصل ولعلّ الصواب: تجسم. وكذلك في العبارة السابقة « جسم للوشاة »

٤) وفي نسخة ليبرت « ترجع » والصواب كما في نسختنا ٥) ولعلها: فاعل

والانتفاع به . واما الاول منهما فقد اتيتَ عليهِ فانك استفدتَ سوى ما افضى اليك عن ابيك حمدًا كثيرًا وحويت بلادًا واسعة وبلغت من بعد الصوت ونباهة الذكر ما لم يبلغهُ احد بعهدنا

وبقي عليك العمل الآخر من استعمال ما افدت وتدبيرهِ وانا ان (١ تبلغ ذلك بما انت عليهِ من حب الكرامة والمنافسة في السناء والزيادة على ما رسخ فيك قديمًا من ذلك

وقد اعلم ان نفسك تسمو بك الى غزواتٍ ووقائع أَحزْتهم(٢ بها وتستعد لها . وقد لعمري اسعد الله جدَّك ومكَّن لك ولكن اذكرُ الآفات التي تعرض لهذا البشر (٣ من انقلاب الجدّ ونكبات الايام . وأخطر ببالك ذلك في جهادك عن نفسك وبلادك انك قد اصبحت ملكًا على ذوي جنسك واتيت فضيلة الرئاسة عليهم . فمما يشرّف رئاستك ويزيدها نبلًا ان تستصلح العامة فتكون رئاستك رئاسةَ لخيارٍ محمودين لا لشرارٍ مذمومين فان رئاسة الاغتصاب وان كانت تذمّ لخصالٍ شتّى فان (٤ اولى ما فيها بالمذمة انها تحطّ قدر الرئاسة وتزري بها . وذلك ان الغاصب انما يتسلّط على الناس كالعبيد لا كالاحرار فرئاسة الاحرار اشرف من رئاسة العبيد فهذا بمنزلة من يختار رعي البهائم على ملك البشر وهو يظن انهُ قد اصاب وغنم . فهذا حال الغاصب وطرائقه يطلب مجد الملك وشرفه فيصير الى خلاف ذلك وليس شيء ابعد من الملك من الاغتصاب لان الغاصب في شكل المولى والملك في شكل الاب . وكان ملك فارس يستي كل احد عبدًا ويبدأ بولده وهذا مما يصغر قدر الرئاسة لان الرئاسة على الاحرار والافاضل خير من التسلط على العبيد وان كثروا

انَّ اكثر من خلا في سالف الدهر من الرؤساء اقتصر بصغر الهمّة على المنافع (٥ الرئاسة والتسلط كيف كان وكان يتكرم للخوف لا للمحبة وهذه كرامة دائرة مضمحلة وذلك انها تبطل مع انقضاء الرئاسة . فاما الكرامة التي تكون من حسن الاثر فانها

---

١) والصواب : وانا أنّا

٢) وقد قرأ ليبرت « اخَّرتم جا » واصلح « اخَّرنا »

٣) قد اصلح ليبرت « البسر »

٤) هنا في الاصل لفقتان اعادهما الناسخ غلطًا « رئاسة الاغتصاب »

٥) اصلح « منافع » بدون التعريف

تخلد ولا تبيد. وليس يليق بك ان تقعد عن مثل هذه الكرامة لانهُ ليس في قديمك نقص ولا في شيء من امرك تقصير بل كل امرك جليل وما انتج لك جميل جسيم. وقد يجب عليك ان كنت بهذا الحال السبق الى كل ما رسمنا والعمل بكل ما جددنا (١ احمل نفسك على خلتين هما عقدتا الامر وذلك ان يكون عدلًا لين الجانب فان الرئاسة لا تدوم الّا بطريقتين مختلفتين لا محالة. وذلك ان كثيرًا من الناس وهم السفهاء انما يذعنون للسلطان بالخوف فلا بد للسلطان من الشدة عليهم فامّا الافاضل فيخضعون للسلطان بالحباء والمحبة فقد يحتاج السلطان الى التفهم والرفق بهم حتى يجتمع امر الناس طوعًا من بعض وكرهًا من بعض

وليس ينبغي للسلطان ان يجري الكبار والصغار عنده مجرًى واحدًا بل يستعمل في كل واحد منهما ما يصلح عليهِ كل الناس يحبُّ ان يكون سلطانًا لان هذا طبع في الناس عامة ولكنهم لا يطلبونهُ بالعدل وعلى مجرى الطبيعة. والسلطان اذا لم يكن يعدل فليس سلطانًا لكنَّهُ غاصب مستكره انك حقيق ان تسل سجيّة (٢ العامة على السلطان بما تذيقهم من فضل تدبيرك وتضع عنهم من مكروه عنفك. فان العبيد اذا عُرضوا على المشتريين (٣ فليس يسألون عن يسارهم وجاههم وانما يسألون عن غلظتهم وفظاظتهم. والاحرار احرى ان ينفروا من ذلك اذا كان في السلطان حتى يصيروا الى خلعه بالوقوف عليهِ. واذا ظهرت على فئةٍ فضع مع اوزار الحرب اوزار النصب لانهم في تلك الحال اعداء وهم في هذه الحال خول (٤ فقد ينبغي لك ان تبدلهم بالنصب رحمة وبالقسوة عطفًا. ولا ينبغي للملك ان يحقد على الاشراف بل يغمرهم احسانه والناس كافة ليجرى من نسبهِ الى خلاف ذلك مما يظهر من كرمه وسعة خلقه

واعلم ان الضيم في المراتب اشدّ على الاحرار من الضيم في المال والابدان فقد يبذلون اموالهم وابدانهم كثيرًا دون ان يضاموا في مروآتهم واقدارهم وذلك لا ينبغي للملك ولا يشبهه ان يركب اخدانه بل هو منهُ دناءة وصغر همّة

---

١) كذا في الاصل والصواب حدّدنا
٢) في الاصل « سجيسة » وهي غلط
٣) أصلح « المشترين »
٤) كذا في نسختنا وقد قرأ ليرت « حُوَل »

قد ينبغي للملك ان يعرف مقدار الغضب فلا يكون غضبه (١ شديداً قاسياً ولا ضعيفاً قصيراً فان ذلك من اخلاق السباع وهذا من اخلاق الصبيان. ولست آمن ان تؤتى بما قد جرى عليه ناسٌ كثير من سوء المشورة فانَّ كثيراً من الناس يشيرون اذا اشاروا ليس بما يشاكل المشار عليه ولكن بما يشاكلهم وليس هو مما يُنتفع به في هذا الامر الحادث ولكن ما تخفهم منفعة في انفسهم فانا احبّ لك ان تقتدي بمشورة الذي يقول انَّ فعل الخير في الجملة افضل من فعل الشر

وقد ينبغي ان تبالغ نهاية لمن سواك فان العدل محمودٌ مقدَّم عند الحكماء عامةً وعند الجهال ايضاً وقد يستطيع ان يغلب (٢ بالشر الاشرار وبالخير دون الشر وهي اشرف الغلبتين لان الغلبة بالشر جلدٌ والغلبة بالخير فضيلة. وليخطر بالك ما يحكى عن فلان حيث اشار عليه الآخر فقال له: لو كنت انا انت لقتلت هذا الرجل. فقال له: فاذ لم اكن انا انت فلستُ بقاتله

وقد ينبغي لك ان لا تلتفت الى مشورة من يشير عليك بغير الذي انت اهله ولا تعبأ بكلام العوام خسيسة اراؤهم ناقصة همهم ويموّهون عندك الامور ويحملونك على العامة فانهم ليس يعدلون بذلك انفسهم وجرّ المنافع اليها فهم مع ذلك يعيبونك في المعاملة لانهم من نعمتك فيما يسعهم ولست من رأيهم فيما ينفعك. وذلك انهُ لا يشبهك تقتدي بامورهم ولا يستوي الامر بك وبهم فليس ما اصلحهم مصلحك ولا كلُّ ما كان لهم فخراً وشرفاً فهو لك كذلك. وكل ما تاوه من حياتك (٣ وكرامتك فهو لهم غنمٌ لان من لم يكن له شيء فكل شيء عنده ربح. انهُ قد لمكنك ان تودع الناس من حسن اثرك ما ينتشر ذكرهُ في اقاق البلاد ويبقى اثرهُ على وجه الدهر فاقترض ذلك في اوانه. وان الذي يتعجّب منهُ الناس الجزالة وكبر الهمّة والذي يُحبون عليه التواضع ولين الجانب فاجمعْ (٤ الامرين يجتمع لك محبة الناس لك وتعجبهم منك

---

١) روى ابن ابي اصيبعة: «الغضب» و«وغضبهُ»

٢) اصلح تستطيع ان تغلب

٣) كذا في الاصل. وقد اصلحها ليبرت «حياتك» والصواب «من حياتك»

٤) كذا في الاصل وهو الصواب وقد قرأهُ غلطاً ليبرت «فاجتمع»

واعلم ان الامور التي تكتسب بها الذكر وبعد الصوت ثلثة: احدها حسن السيرة. والثاني البلاء في الحروب والوقائع. والثالث عمران المدائن لا تمتنع ان تتكلم بما يقنع العامة فان الناس ينقادون للكلام اكثر من انقيادهم للبطش فلا تحسبنّ ان ذلك يضع من قدرك بل ممّا يزيدك رفعةً ونبلًا ان تنطق بالحجّة اذ انت قادرٌ على القسر: واعلم ان التودّد من الضعيف يُعدُّ ملقًا واعلم ان التودد من القوي يُعدّ تواضعًا وكبر همّة فلا تمتنع من التودّد الى العامة لتخلص لك مودّتهم وتنال الكرامة منهم

واعلم ان الايام تأتي على كل شيء فتخلق الافعال وتمحو الآثار وتميت الذكر الّا ما رسخ في قلوب الناس محبة تتوارثها الاعقاب فاجتهد بالظفر بالذكر الجميل الذي لا يموت. واعلم ان المدائن التي دخلها الخلل والانتشار اتى ذلك اليها من سوء رسوم الرؤساء والمدبرين. وذلك انهم آثروا جرّ المنافع الى انفسهم على تفقُّد امور العامّة وتقويم سنن المدن وصرفوا همهم في تحصيل اللذّات الزمنيّة واهملوا التدبير الباقي اثرُهُ وذكرهُ على وجه الارض والدهر. وقد رجوت ان تكون عواقب امورك الى سعادةٍ وان تجتمع لك الخصال المحمودة عند اليونانيين لانك حقيق بها. واجتهد ان تظفر بالذكر الذي لا يموت بان تودع قلوب الناس محبة تُبقي بها ذكر مناقبك وتشرّف بها مساعيك على الابد والسجود لذكرك والخضوع لفضلك. والسلام اليك وعليك

لبنان

نظر في اشغاله العموميّة وزراعته ومستقبله الاقتصاديّ (تابع)

للاديب اميل افندي خاشو مهندس لبنان سابقًا

٣ الصناعة الخاصّة

ولعلّ القارئ يقول انّ الطرق وسقي الاراضي في لبنان عائدة الى المنفعة العامّة أفلا يمكن اللبناني ان يوسع نطاق الصناعة الخاصّة ايضًا؟ بلا شكّ وذلك على انواع شتّى. واوّل ما اشير به على اهل لبنان ان يحسّنوا الصنائع التي يرتزقون بها فانّ كثيرًا منها لا يزال على الطرز القديم كما ائتلفهُ اجدادنا الاقدمون

(الطواحين) انظر مثلاً الطواحين فانها عديدة في لبنان وهي كلها تدور على الدواليب الخشبية العتيقة ولو شاء اصحابها لأمكنهم بالقوة المائية عينها ان يُديروا طاحونين . وقد اختبر ذلك احد سكّان انطلياس فانهُ استبدل ادوات طاحونهِ العتيق بادوات مستحدثة اشتراها من بعض المعامل التي كانت جهّزت هذه الادوات على طرز جديد واليوم ترى ثلاثة ارحاء عوضاً عن مطحنتهِ القديمة اما ربحهُ فزاد ثلاثة اضعاف على ربحهِ السابق قبل انتهاء السنة

وكذلك قد اقام بعض اهل لبنان مطاحن ليديروها بمحرك غاز البترول . وعددها اربع او خمس . فنعم ما صنعوا لانهم بذلك يستغنون عن الماء ويبنون هذه المطاحن حيث شاؤوا في الاماكن التي تكثر فيها السكّان ويسهل على القرويين القدوم اليها

فهذه تجارة رابحة يمكن الانتفاع بها في عدّة اماكن بشرط ان لا يصير مزاحمة بين اصحابها لانها اذا كثرت ضاع الربح وفُقدت الفائدة المطلوبة . ويا ليت هذه المزاحمة تجري في توفير الطواحين المتحرّكة بالبترول فتُهمل طواحين الماء وتستعمل المياه لسقي الاملاك

(الكلس) وفي الجبل صناعة أُخرى رابحة يمكن الاستفادة منها بتحسينها نريد اصطناع الكلس . وبياناً لذلك تقدّم بعض الملحوظات المبنيّة على علم طبقات الارض . ان معظم جبال سوريّة يتركّب من المواد الكلسيّة الطباشيريّة . ويمتاز بينها لبنان وهو يتألف من مواد كلسيّة متراصّة ضاربة الى الرماد . والمرحوم المسيو بلانش احد علماء الطبيعة في بلادنا كان فحص طبقات لبنان الجيولوجيّة فعرّفها بهذا التقرير مباشرةً بحضيض الجبل الى اوساطه فاشارفه :

١ً في اسفل لبنان تتركّب تربة الجبل من مواد كلسيّة مصفرّة مع اجزاء ارضيّة مختلطة بكربونات الكلس (dolomite) وحبوب الكوارتز

٢ً فوقها مواد كلسيّة بيضاء غاية في الصلابة والارتصاص قريبة من التبلور

٣ً ثم مواد كلسيّة ضاربة الى الصفرة مع اقسام ارضيّة وتبلورات . وهذه الطبقة غنيّة بالحيوانات المستحجرة كالمرجان والمحار

٤ً ثم صلصال رقيق ضارب الحمرة فوقهُ مزيج اخضر من تراب الكلس والصلصال مختلط بمحار كبيرة مستحجرة

٥ً ثم مواد كلسيّة محبّبة كبيض السمك (oolithiques)

٦ً ثم مواد كلسيّة متلاصقة ليس بينها مستحجرات

٧ ثمّ مواد كلسيّة مرتصّة بينها اصداف بحريّة (nérinées)
٨ ثمّ اخيرًا مواد كلسيّة بيضاء سريعة التفتّت بينها صوان كمد اللون

ومما يجدر الاستلفات اليه وجود طبقات جيولوجيّة تكثر فيها الاسماك المستحجرة ومن هذه الاسماك ما يُرى حتى اليوم حيًّا في سواحل لبنان . ومنها ما هو خاصّ بطور الطرّان المعروف بالطباشيري (époque crétacée) . وهذه المستحجرات كثيرة في التربة الصلصاليّة الكلسيّة عند ساحل علما قريبًا من جونية ولا تزال آثارها باقية

وفي لبنان ما خلا ذلك طبقات من الرمل المتحجّر في خلالها سافات فحميّة يختلف سمكها من بعض سنتمترات الى متر او متر ونصف وهذا الفحم ممزوج بالكلس والصلصال الضاربين الى شُهبة بزرقة . ومن هذه السافات ما يُرى في بعض الامكنة على شكل الالواح الرقيقة المتراكبة على بعضها ومادّتها سوداء خفيفة سريعة الالتهاب

واذا كانت هذه الطبقات الفحميّة أسمك يلوح في وسطها بقايا من جذور الاشجار المتحوّلة نوعًا الى فحم مع عروق من مزيج الكبريت والحديد او النحاس (pyrites) وكثيرًا ما يتركّب هذا المزيج من مواد خشبيّة مستحجرة ولذلك يتعسّر ايقادهُ . وبعض اللبنانيين يعدّون هذه المناجم بين ارصون وعين حماده في المتن وفي حيطوره من قضاء جزّين . لكنّ لبنان اجمالًا فقير بالمعادن الّا الحديد فانهُ متوفّر في معاملات كسروان والمتن والشوف

﴿ اصطناع الكلس ﴾ فلنعودنّ بعد هذه النبذة الجيولوجيّة الى ذكر الكلس فنقول انّ اهل لبنان يجرون في اصطناعهِ جريهم في كلّ اعمالهم فانّهم يداومون على طرائقهم القديمة المخلّة دون ان يُدخلوا فيها شيئًا من الاصلاح . واوّل ما نعيبهُ في اتاتين الكلس هيئتها الشائهة في لبنان فانّ اصطناعها على هذه الصورة موجبٌ لفقد حرارة كبيرة وكميّة عظيمة من الوقود وكلّ ذلك يذهب سدًى دون طائل . أليس هو أنسب وأربح ان تُتّخذ بدلًا من هذه الاتاتين التي لا يمكن الانتفاع بها الّا بعد تفريغها واطفاء نارها اتاتين أُخرى مستحدثة يدعونها بالاتاتين المتواصلة التي تشتغل دون انقطاع فيُنزع الكلس المطبوخ ويُستبدل بموادّ غيرها بلا عناء وفي ذلك من الاقتصاد في احماء التنّور ما لا يُخفى

وكذلك الوقود فان اهل الجبل يتّخذون لذلك جُوَز الحطب يجمعونها بتعب عظيم

وكان الاولى بهم ان يوقدوا الأتون بالفحم المعروف بالكوك الذي تبيع شركة الغاز القنطار منهُ بنحو ٥٠ الى ٥٥ قرشاً . وافضل من ذلك الفحم الحجري الذي يساوي الطنّ منهُ ٣٠ الى ٣٥ فرنكاً . امّا الحطب فانّ حرارتهُ اقلّ من حرارة الفحم الحجري . ويكلّف اكثر . لانّ متراً مكعّباً من الكلس يحتاج الى طنّ من الحطب اعني انّ ستّة قناطير من الكلس يلزمها خمسة قناطير من الحطب ويكفيها قنطاران من الفحم الحجري وان قابلت بين اسعار الحطب والفحم وجدت انّ في استعمال الفحم بدلاً من الحطب ربحاً يبلغ ٣٠ قرشاً في كلّ ستّة قناطير من الكلس

هذا ونحن نعلم انّ هذه الاسعار ليست دائماً ثابتةً لاختلاف اسعار الفحم الحجري وكذلك لمصاريف نقلهِ الى الامكنة البعيدة . وعلى كلّ حال ينبغي لطالبي الكلس ان ينظروا ما يصيبونهُ من الربح باتخاذ الفحم الحجري

وكذلك الحجارة الكلسيّة فانّ اصحاب الاتاتين يتّخذونها من جنس واحد ليصطنعوا منها الكلس الابيض الشديد البياض . وحسناً يعملون ان كان المطلوب هذا الكلس . لكنّ البنّائين يحتاجون ايضاً الى كلس خافق (chaux hydraulique) المعروف بالتراب الفرنجيّة ليجعلوهُ في اساس الابنية فلو اصطنعوا منهُ لربحوا ربحاً عظيماً وذلك ان يتّخذوا حجارة صلصاليّة يطبخونها بدلاً من الحجارة البيضاء . وفي طبخ هذه الحجارة اقتصاد في الوقود ايضاً (١

وممّا نعرضهُ على اصحاب الاملاك في سواحل البحر اتخاذ مقالع الحجارة يشحنون بها المراكب لتُنقل الى الخارج . فانّ في جبيل والبترون حجارة رمليّة غاية في الحسن وفي المعاملتين حجارة كلسيّة جيّدة . وفي مكلّس صنف آخر من الحجارة الكلسيّة المدعوّة بالحجر الفُرني . فكل هذه الاصناف لو بيعت بمصر لاستفاد منها اصحابها مبالغ . ومصر كما هو معروف في حاجة الى حجارة البناء التي تأتيها من فرنسة وايطالية والنمسة . وكذلك تحتاج شركة قناة سويس الى حجارة مثل هذه لاشغالها الخاصّة

ويوجد ما خلا ما ذكرنا صناعة أُخرى مفيدة لاهل الجبل وهم يجهلونها بد انّي

(١) ولمّا كان اصطناع الكلس من اكبر الصنائع اللبنانيّة قد نويتُ ان اضع في ذلك مقالةً مطوّلة أبحث فيها عن بناء الاتاتين المتواصلة العمل وانواعها اجملها ان شاء الله كملحق لهذه المقالة في لبنان

رأيتُها شائعة في بلاد جبليَّة كلبنان اعني بلاد سويسرة التي ليس لها معادن تستثمرها كالبلاد السهليَّة . والصناعة المذكورة هي صناعة الساعات . ولي كلام طويل في ذلك لا يمكنني ان اوضحهُ هنا في اسطر قليلة وسأعود اليهِ ان شاء الله في مقالة خصوصيَّة . واكتفي اليوم بالاشارة اليهِ فقط فانَّ كلّ من لهم المام بأحوال لبنان من ارباب النظر قد وافقوني في هذا الامر كلما عرضتهُ عليهم ولستصوبوا كلامي . وعسى ان أُقنع بهِ اهل الجبل (لهُ تتمَّة)

نشرة كتابيَّة

لاساتذة المكتب الشرقي اللاحق بكليَّة القديس يوسف

نعود هذه السنة ايضاً الى وصف المطبوعات التي اتحفنا بها العلماء ونُفرد لها مقالات على حسب موادّها فتظهر بمجموعها حركة الآداب في كلّ فنّ . ونبتدئ كما فعلنا في العام المنصرم (المشرق ٩ : ٤١٦ و ٤٦٥) بنشرة كتابيَّة نذكر فيها التآليف التي مدارها على الاسفار المقدَّسة

*

١ واوَّل ما يستحقُّ الذكر القسم الثاني من كتاب سبقت هذه المجلَّة (١٩٠٥ ص ٨٦١) فاوقفت القرَّاء على صدور قسمهِ الاوَّل نريد طبعة جديدة للتوراة العبرانيَّة سعى في طبعها بعض جلَّة العلماء المستشرقين في مقدَّمتهم الدكتور ر. كيتّل (١ . ولم يضنّ كاتب تلك الاسطر بالثناء على المشروع وكثرة فوائدهِ والحق يُقال انَّ هذا القسم الثاني كشقيقهِ البكر في كلّ صفاته الحسنة فتستطيع القول ولا تخاف تكذيباً بان هذه الطبعة قد افادت الدروس الكتابيَّة افادةً محسوسة اذ ابرزت النصّ العبرانيّ من الاسفار الالهيَّة مضبوطاً منقَّحاً محسَّناً بعد معارضتهِ باقدم النسخ واصحّ الروايات . على انَّ في الكتب المنزلة فصولاً متعدّدة قد حارت العقول في تعريف طريقة كتابتها أهي من النثر او من الشعر كما ترى في سفر الجامعة حيث يصعب الفرق بين النظم والنثر

(١ תורת נביאים וכתובים : BIBLIA HEBRAICA, adjuvantibus Beer, Buhl, Dalman, etc., edidit R. Kittel. Pars II, pp. 1320, 8°, *Lipsiæ, Hinrichs*, 1906

والبحث عن ذلك لا يزال جاريًا بين العلماء لا يتفقون عليهِ حتى الآن . واصحاب هذه الطبعة الجديدة قد تحرَّوا الطريق الوسطى في الغالب فجعلوا من الشعر ما رأوا فيهِ ما خلا السجع والتجنيس بعض الايقاع الشعريّ اللهمَّ الَّا فصولًا لم نوافقهم فيها على رأيهم مثال ذلك أنهم نظموا في سلك الشعر اقساماً من سفر اشعيا كالفصل السابع من الآية ١٨ وما يليها والفصل الثامن من الآية ٥ وما بعدها ولا نرى ما دعاهم الى ذلك مع انَّ في سفر اشعيا نفسهِ وفي سفر ارميا فقرات لم يرووها في الشعر وليست هي دون السابقة في حسن ايقاعها ومعانيها الشعريَّة مثلًا اشعيا (ف١٤ من ١ الى ٢٤ ثم ف١٩ : ١٦—٢٥ ثمَّ ٢٤ : ١—٦ ثمَّ ٣٠ : ١٨—٢٧) وكذلك ارميا (ف٣ : ٦—٨ ثم ٤٨ : ٣٤—٤٢) واما كن غيرها لا ينقصها شيء من شروط الشعر العبرانيّ . وانتقادنا هذا خفيف بالنسبة الى محاسن هذه الطبعة التي نوصي بها كلّ محبّي الدروس الكتابيَّة

٢ ومِمَّا يسرُّنا بسط فحواهُ لقرَّائنا مجلَّدان ضخمان وضعهما احد المدرسين في مدرسة لوزان في سويسرة الاستاذ لوسيان غوتيار (١ . ودعاهما بالمقدِّمة على درس العهد العتيق . ومؤلف هذا الكتاب من علماء البروتستانت قد زيَّن تاليفهُ بمحاسن شتَّى من شأنها ان تستوقف انظار العلماء فمن ذلك حُسن الاسلوب في التقسيم وارتباط الفصول في بعضها وسلاسة الانشاء ورقَّة التعبير ومنها الايضاحات اللغويَّة المهمة والاشارة الى تآليف كبار اساتذة المعلّمين الافرنسيين والالمان والانكليز ممَّا يدلُّ على سعة معارف المؤلف واحرازهِ لمعظم ما كُتب في هذا المعنى في زماننا . فهذه لعمري صفات لا يسعنا انكارها . بيد اننا نجد ايضًا في كتابهِ ما يستدعي الانتقاد على آرائهِ والردّ على مزاعمهِ . فمن ذلك انهُ لم يكتفِ ببيان ما استعارهُ موسى الكليم من معلومات الذين سبقوهُ بل يدَّعي انَّ معظم ما في كتب هذا المشترع الكبير ليس هو لهُ وانَّ كتب موسى الخمسة ليست سوى مجموع غير منتظم من اقوال غيرهِ — ومثلهُ في الغرابة رأي المؤلف في الانبياء ونبوَّاتهم فانهُ يجعلهم كهانيين ذوي نظر ثاقب سبقوا فعلموا الامور قبل وقوعها بتوقُّد ذهنهم — وكذلك زعم انَّ المزامير مجموع تسابيح تقويَّة ليس فيها اشارة

(١ اسمهُ في الاصل الفرنسويّ :

Lucien Gautier: Introduction à l'Ancien Testament, 2 vols; gr. in-8°, XVI, 671 et 642, *Lausanne, G. Bridel et C^ie^*. Prix 20 f^rs^ les 2 vols.

الى المسيح — ومن مزاعمه المردودة قولهُ بان نشيد الاناشيد لا يتجاوز المعاني الغزلية وانَّ كتاب الجامعة لم يُنظم في سلك الكتب المقدَّسة الَّا لاجل ختامهِ حيث يقول : « أتقِ الله واحفظ وصاياه فان هذا هو الانسان كلهُ » . هـذه بعض الاقاويل الغريبة التي ضمَّنها المسيو غويتار كتابهُ ويا ليتهُ دعم آراءهُ بحجج مقنعة فانَّنا لسنا ممَّن يكابر الحقّ فان وجدنا في اقوال مناظر ادلَّةً بيّنة وبراهين ثابتـة سلَّمنا بصحَّتها . ولكن ما قولك بكاتب يخوض في تفسير الكتب المقدَّسة ويشرحها بمبضع انتقادهِ الخاصّ وهو لا يقرّ بالوحي ويعتبر كلّ ما يفوق طور الطبيعة كخرافة فينفي المعجزات لعدم انطباقها مع عقلهِ القاصر أفلا يُفسد حقيقة تلك الكتب المنزلة ويقيس اعمال الله بقياس باطل . وزد على ذلك انـهُ يزيّف بلا دليل تقليدًا متواترًا رضخت الى حكمهِ العقول النيّرة وتسلَّمتهُ الاجيال كسلسلة متواصلة غير منفصمة لم يقوَ على قطعهـا فحول المناقضين . هـذه بعض ملحوظاتنا على كتاب الاستاذ غويتار ولا نظنّ انَّ المشايعين للمذاهب البروتستانية يقولون غير قولنا في كتابهِ اللهمَّ اذا ارادوا ان يحفظوا شيئًا من الدين ولا يتورَّطوا في الزندقة والالحاد

٣ يُلحق بالكتاب السابق تأليف لاحد ائمَّة العلوم الشرقيَّة في المانية الدكتور الفرد جرمياس وسمهُ « بالعهد الجديد في نور الشرق القديم » (١ وضعهُ صاحبهُ كدستور لطلبة الدروس الكتابيَّة القديمة في علاقتها مع الآثار الشرقيَّة . وهذه الطبعة الثانية بعد صدور الكتاب منذ سنتين ما يدل على رواجهِ وشيوعهِ بين البروتستانت في المانية وهم قد اتخذوهُ بمثابة كتاب الاب ڤيكورو (Vigouroux) المعنون بالتوراة والاكتشافات الحديثة (La Bible et les découvertes modernes) . ومن مزايا هذه الطبعة انَّ صاحبها زاد عليها ٢٥٠ صفحة وزيَّنها بعدَّة تصاوير جديدة . وغاية المؤلف من تصنيف هذا الكتاب أن يبيّن انَّ الاكتشافات العديدة التي تكرَّرت في انحـاء الشرق في عهدنا ليس فقط لم تنقض حقيقة الاسفار المقدَّسة بل زادتها قوَّةً سواء كان في الامور التاريخيَّة او في الآداب او في الاثريَّات . ولبيان الامر قد اتخذ الدكتور جرمياس طريقةً

(١ Alfred Jeremias: Das alte Testament im Licht des alten Orients. 2te neubearb. Aufl. 1906. Hinrichs, 8°, XV-624 pp. mit 216 Abb. u. 2 Karte.

عجيبة فانهُ يزعم انَّ التمدُّن والدين الشائعين في خوالي القرون بين البابليين خصوصاً وبين بقيَّة الشعوب عموماً كانا مبنيَّين على التنجيم ولم يستثنِ من ذلك بني اسرائيل فسعى المؤلف ان يجمع من الكتاب المقدَّس كلَّ اثر يدلُّ على علم الهيئة والتنجيم من تكوين الابوين ثم الطوفان ثم تفرُّق الامم ثم تاريخ ابراهيم وقصَّة يوسف وقضاة اسرائيل وهلمَّ جرًّا. ويزعم المؤلف انَّ في تفاصيل التوراة عن هذه الامور اشارات واضحة او خفيَّة الى النجوم وعبادتها . فمن مزاعمهِ مثلًا انَّ يوسف الحسن لم يكن شخصاً وهميًّا كما ارتأى ڤلهوسن (Wellhausen) وانَّما برز في سفر التكوين على هيئة المعبود الشمسي الاله تمُّوز . وهذا المزعم الغريب لم يسبق اليهِ الدكتور جرمياس بل اخذهُ عن كاتب الماني آخر شهير يُدعى وُنكلر (Winckler) . ولعمري انَّها لبئس الطريقة بناها كلاهما على شفير هارٍ لا سند لهُ غير التخيُّلات والوهميَّات وهي لا تبعد عن طريقة بعض الملحدين في المانية كالسيو ستوكن (Stucken) الذي نفى كلَّ حقيقة التاريخ من الاسفار المقدَّسة وجعل كلَّ الآباء وقضاة اسرائيل وملوكهم اشخاصاً وهميَّة لها اسماء دون اجسام . ولا نشكُّ انَّ ارباب الذوق السليم والعلماء الصادقين ينبذون هذه الترهَّات نبذ النواة . ويسوءنا ان ننظر علماء كجرمياس يُضيعون وقتهم في هذه التصوُّرات الفارغة فيهيمون في وادي تضلُّل ويضلِّلون غيرهم من السذَّج . هذا ولا ننكر انَّ صاحب الكتاب استفاد في تأليفهِ من الاكتشافات الحديثة ومن تآليف كثير من العلماء مع مراجعة الآثار الشرقيَّة التي تفيد لدرس الاسفار المقدَّسة . ومع اقرارنا بهذه الفوائد قد وجدنا المؤلف لا يعلم العلم الكافي بالماديَّات الشرقيَّة ومما يدلُّ على ذلك انَّهُ قد ازال من طبعته الاولى آثارًا مزوَّرة لا صحَّة لها . وقد ابقى منها شيئاً في طبعتهِ الثانية ولولا ضيق المقام لأتينا بشواهد متعدِّدة على قولنا . فمن ذلك انَّهُ نشر في الصفحة ١٤٣ من كتابهِ (ع ٦٠) صورة هيكل فينيقي وليس هو في الحقيقة هيكلًا وانَّما هو صورة كوخ صغير اقامهُ بعض القدماء كتذكار تقويّ . وترى في نافذتيهِ صورة امرأتين — وكذلك نشر (ص ١٩٧ عدد ٦٨) صورة لسطوانة قد اقتناها وظنَّ انَّها من اصل فينيقيّ ولو تروَّى لأمكنهُ ان يقابلها باثر حثّي رسمهُ في الصفحة ٥٨٥ (عدد ٢٠١) — واغرب من هذا (ص ٢٧٨—٢٧٩) انهُ قابل بين برج بابل واهرام مصر الدرجيَّة دون ان يبيِّن العلاقة الموجودة بين البرج الهيكلي وبين الهرم المدفنيّ . وفي هذا دليل واضح على انَّهُ

يجهل خواصّ الآثار المصرية — وقد غلط (ص ٢٩٢) اذ نسب اكتشاف بعض العاديات للالمان وهي في الحقيقة لافرنسيين سبقوهم الى ذلك — ثم نشير الى المؤلف ان يراجع لاصلاح قوله في كدرلاعمر (ص ٣٤٧) ما كتبهُ العلّامة ساس (Sayce) في مجلّة الآثار الكتابيّة (Proceedings of the Society of Bibl. Archæology, 1906, p. 193) — ومن مزاعمهِ (ص ٤٢٣ و ٤٢٤) انّ موسى كتب بالقلم الاشوريّ وهو امرٌ مشبوه. لأنهُ امكنهُ ان يستعير لكتاباتهِ القلم المصريّ الديني وان كانت لغة العبرانيين ساميّة مختلفة عن لغة المصريين (اطلب اعمال مؤتمر المستشرقين في روميــة سنة ١٨٩٩). وكذلك قد وجد اليوم المسيو ونكلر في بوغازكوي آثارًا حثّيّة مكتوبة بالقلم المسماري وكانت لغتهم بعيدة عن لغة اشور وخلاصة القول انّ شعبًا لا كتابة لهُ يمكنهُ ان يستعير لكتابتهِ لغــة شعب آخر وقلمهُ او يكتفي باتخاذ قلمهِ دون لغتهِ كما فعل الفرس باتخاذهم الحرف العربيّ للغتهم المخالفة للغة العربيّة

٤ ويلحق بالكتاب السابق كتاب آخر لاحد انصار ونكلر المدعو إرْبت (١ . فانهُ هو ايضًا يتعقّب آثار المعلّم في قولهِ وزعم مثلهُ انّ التاريخ الشرقي كلهُ صدًى لتاريخ البابليين ودينهم وقد بنى على ذلك تاريخًا وهميًّا لبني اسرائيل لا يستندهُ الى سند مقرّر وانّما ينقل شيئًا من اقوال التوراة فيتصرّف فيها كيف يشاء على طريقة ونكلر وان كان لم يستشهد بقولهِ الّا نادرًا. وقد اراد المسيو اربت ان يحيد عن طريقة فلهوسن واتباعهِ الذين ميّزوا في التوراة اقسامًا تاريخيّة متجانسة تتّفق في اساليبها واغراضها. امّا المسيو إربت فنهج طريقًا جديدة ليس لها حقيقة وضعيّة وهي كلها ارهام خياليّة ترى علماء المانية انفسهم يصوّبون اليها سهام الملام فاحتاج المسيو إربت ان يزكّي نفسهُ بمقالة نشرها آخرًا في مجلّة « فيكر » الالمانية (Wissenschaftl. Correspondentzblatt d. Philologiæ Novitates, Octobre, 1906, p. 9)

٥ ومما كُتب آخرًا في تاريخ البابليين والعبرانيين في الانكليزيّة خُطب ألقاها

---

١) اسم كتابهِ بالالمانيّة :

W. Erbt: Die Hebraeer, Kanaan im Zeitalter der hebr. Wanderung u. hebr. Staatengründungen, *Hinrichs*, 1906, IV - 236 pp. 8°.

شابّ اميركي اسمهُ ستيفن لنكدون (١ احد تلامذة حضرة الاب شيل الدومنيكي في الآثار الاشوريَّة وكان قد القى هذه الخطب في كنيسة بروتستانية تدعى كنيسة الثالوث فرغب اليهِ اصحابهُ ان ينشر تلك الخطب فنشرها في باريس واضاف اليها حواشي وملحوظات شتَّى . ثمَّ الحقها ببعض نصوص اشوريَّة لم تُطبع حتى الآن تتضمَّن رسائل تجاريَّة يرتقي بعضها الى عهد الملك حمورابي . وما يُقال بالاجمال عن هذه الخطب انَّها لا تروي غليلًا فانَّ صاحبها يذكر اشياء كثيرة مستندًا الى اقاويل غيره غثَّة كانت او سمينة دون ان يميّز بينها . ومنها مزاعم مردودة نقلها الكاتب عن بعض مشاهير الكتبة المعاصرين للدين ممَّن يسهل تزييف ارائهم . لكنَّه في وصف الماديَّات اصدق منهُ في رواية الامور التاريخيَّة لانَّهُ خصَّ نفسهُ بدرس الآثار . ومن ثمَّ نشير الى القرَّاء ان يأخذوا حذرهم من بعض رواياتهِ غير الثابتة كوصفهِ (ص ٨—٩) لغزوات السامين وكقولهِ (ص ٨—١١) عن سلالة الهكسس والعبرانيين جاعلًا بين الأمتين علاقةً تاريخيَّة كأنَّهُ قد ثبت لدى الجميع اصل الهكسس من بني سام — وممَّا اذهلنا في كتاب المؤلف انهُ لم يأتِ بذكر الفلسطينيين والامم التي كانت في سواحل البحر . — وكذلك قد وقعت اغلاط كثيرة في طبع هذا الكتاب كقولهِ مثلًا (ص٢٢) Disaspora والصواب Diaspora الى غير ذلك ممَّا لا فائدة في ذكرهِ

٦ انَّ دائرة المعارف البروتستانيَّة التي ذكرناها غير مرَّة (المشرق ٨: ٩١ و ٩: ٧٢٠) كادت تقرب الى نهايتها فقد أُرسل لنا منها الجزء الثامن عشر (٢ الذي امعنا فيهِ النظر بكل رغبة . ولا نعود الى ملحوظاتنا العموميَّة السابقة في هذا التأليف لاسيَّما انتصار اصحابهِ لمزاعم المناقضين للدين في الموادّ الكتابيَّة وفي الابحاث الكنسيَّة كأنَّهم يظنون انَّ التآليف العلميَّة الصادقة تتحاشى الاغراض الدينيَّة والتحزُّبات الملِّيَّة ولا ترمي الى غير الحقّ . وهذا ظاهر حتى في الابحاث التي كتبها المعتدلون بينهم كمقالة الدكتور كونيغ (Ed. König) في شيت (SETH) ومقالة الدكتور كيتل (Kittel) في البركة

١) هذا عنوان كتابهِ :

STEPHEN LANGDON : **Lectures on Babylonia and Palestine.** Geuthner, Paris, in-16, XV-183.

٢) **Realencyclopaedie** HERZOG - HAUCK. XVIII. 1906 (Schwabacher Artikel- Stephen II), *Hinrichs.*

واللعنة (SEGEN u. FLUCH) عند بني اسرائيل فانهُ يزعم انَّ البركة واللعنة كانتا ضرباً من السحر — وان انتقانا الى الثناء نجد في هذا القسم عدَّة مقالات تستحقُّ الذكر جمع فيها اصحابُها خلاصة آراء العلماء مع جدول ما كُتب في ذلك في اللغات الاوربيَّة. ومما استحسنَّاهُ للدكتور كونيغ مقالاته في المرآة (SPIEGEL) وفي الالعاب (SPIELE) وفي القتل بالرجم (STEINIGUNG) وللدكتور اولي (V. Orelli) بحث مهمّ في العبوديَّة (SKLAVEREI) وللدكتور غوته (Guthe) مقالة حسنة في طور سينا (SINAI) لولا انهُ لم يستفد مما صنَّفهُ آخرًا العلَّامة بتري (Petrie) في هذا المعنى فجاءت مقالتهُ مخلَّة. واحسن من هذه مقالتهُ في الصيدونيين (SIDONIER) وان فاتهُ بعض تآليف في ذلك كتأليف إزيدور لاوي (I. Lévy) في اصل اسم فينيقية في مجلَّة الاصول اللغويَّة (Revue de Philologie, 1905, p. 309) ونثني احسن الثناء عن مقالة الدكتور بودّيسان (Baudissin) عن الشمس بصفة إلهة عند القدماء (SONNE) لكنَّنا لا نجد سنداً كافياً لرأيهِ في صورة هيكل اورشليم حيث زعم انهُ بُني على صورة هيكل صور. واغرب من ذلك زعمهُ بانَّ في توجيه هيكل سليمان دليلًا على انَّ هيكل ملقرت מלקרת كان الهاً شمسيًّا في عهد سليمان. وكذلك في مقالته غلطة من شأنها انْ توهم القرَّاء الذين لا يعرفون اسماء آلهة تدمر فكتب «ירחיבול» بدلًا من «ירחבול»

٧ فلننتقلنَّ الى ذكر شيء من التآليف الموضوعة في اسفار العهد الجديد. واوَّلها كتاب تفيس للمسيو ق. شوفان (١ ردَّ فيها على آراء الخوري لوازي (Loisy) بخصوص انجيل القديس يوحنَّا. ومن المعلوم انَّ المسيو لوازي في كتابهِ عموماً وفي كلامهِ على انجيل يوحنَّا خصوصاً كان خرج عن تعاليم الكنيسة وجنح الى آراء بعض الاباحيين من البروتستانت. وقد قام جملة من علماء الكاثوليك لتزييف اقوالهِ لكنَّ الجدال تفاقم من الجانبين وكثر بينهما القال والقيل حتى كاد يخرج من حدود الآداب الجداليَّة المرعيَّة. وقد تلافى الخلل المسيو شوفان فردَّ بهذا الكتاب احسن ردّ على مزاعم لوازي وبيَّن لهُ

---

١) هذا اسمهُ:

Constantin Chauvin. Les Idées de M. Loisy sur le 4e Evangile. *Paris, G. Beauchesne*, 1906, in-16, VIII-292.

بألطف كلام انَّ اراءهُ شاذَّة عن الايمان لا توافق اقوال المتعقّلين من البروتستانت فضلًا عن تعاليم الكنيسة الكاثوليكيَّة. وقد تابع في ردّهِ اقوال مناظرهِ بابًا بابًا وأثبت ما فيها من الصحَّة وما يشوبها من البطلان فيثني على الواحد وينفي الآخر جريًا على قول الرسول (١ تس ٥ : ٢١): «امتحنوا كلّ شيء وتمسكوا بما هو احسن». وهي طريقة سهلة المأخذ وان ضعفت فيها قليلًا قوَّة البرهان لحاجة الكاتب الى تتبُّع آثار خصمهِ المتردّد في ايضاح آرائهِ. وممَّا امكنهُ ان يستعين بهِ لنقض آراء لوازي انَّ هذا الكاتب استند في مزاعمهِ الى مبادئ كاذبة فخلط بين الحقيقة والمجاز وبين الامثال والرموز وبين الكناية والمعنى الصريح ولكلّ ذلك قوانين ثابتة لم يفرز بينها لوازي. وكذلك كنَّا وددنا لو قدَّم المسيو شوفان على ردّهِ التفصيليّ ردًّا عموميًّا تسهيلًا للقارئ[1]. وما يقال بالاجمال عن هذا الكتاب انهُ جاء في وقتهِ ويحسن بمحبّي الدروس الكتابيَّة ان يطالعوه

٨ ومن التآليف الجامعة بين المسائل الكتابيَّة واللاهوتيَّة كتاب لحضرة الاب الدومنيكي رجينلد فاي[2] او بالاحرى كرّاس لا يتجاوز ١١٣ صفحة ضمَّنهُ ثلاثة ابحاث من مهمّات الابحاث اعني وحي الاناجيل المقدَّسة وترقّي العقائد الدينيَّة وقانون السرّ في اوَّل الكنيسة. وكلّ من هذه المطالب لا تفي بهِ المجلَّدات فكيف الصفحات والمؤلف قد اراد اختصار ذلك حتى أدَّى بهِ الاختصار الى الابهام والالتباس فان مسائل كهذه تحتاج الى ايضاحات مطوَّلة وشروح مسهبة وادلَّة لامعة وتفاصيل ساطعة ولولا ذلك يبقى القارئ في ارتباك افكارهِ بل تزيد ظلمات عقلهِ بدلًا من ان يستدلّ على الحقائق بالبيّنات الواضحة. فانَّهُ لا يكفي الكاتب ان يردّد كلام الرسول (عب ١٣ : ٩): «لا تنقادوا لتعاليم متنوّعة غريبة» بل حقُّهُ ان يؤيّد أقوالهُ بالبراهين والحجج التي تنفي كلّ ريب ممَّا يحاول اثباتهُ. والسلام

---

١) قد وقع في الصفحة ٩٨ غلطة طبيَّة فطُبع קרסקרט بدلًا من קרבוקרבו

٢) وهو في اللاتينيَّة:

P. Reginaldus Fei O. P. — De Evangeliorum inspiratione— De Dogmatum evolutione — De Arcani disciplina. *Paris, Gabriel Beauchesne et C^ie^*, 1906, pp. 113.

مطبوعات شرقية جديدة

H. R. Hall. Coptic and Greek Texts of the christian Period, from ostraka, stelæ, etc. in the British Museum. — One hundred plates. *London, British Museum*, 1905, in-4°, XII - 160 pp.

نصوص قبطيّة ويونانية على خزفيّات

عرف القارئ من مقالتنا عن البردي (المشرق ٩ : ٨٥١) كم كان وجود البردي عزيزًا حتى في مصر موطنهِ . فسدًّا لهذا الخلل كان القدماء يتّخذون بدلًا منهُ الخزفيّات (ὄστρακα) لرخصها وشيوعها فكانوا يكتبون عليها اما حفرًا بنقرها واما خطًّا بالحبر. وقد عمَّ استعمالها جهات البلاد . واكثر ما شاعت في مصر حيث وُجد منهـا الالوف المؤلفة . وفي المتحف البريطانيّ منها مجموع نفيس لا يزال يزيد يومًا بعد يوم واحسن ما في هذا المجموع خزفيّات متعدّدة من عهد النصرانيّة بالقبطيّة واليونانيّة . وكان العلّامة كرم (Crum) نشر من ذلك كتابًا طبعهُ سنة ١٩٠٢ . وهاك اليوم تأليفًا جديدًا أُلحق بالكتاب السابق يحتوي مئة صورة من هذه الآثار الخزفيّة مع مخطوطات أُخرى على حجارة وخشب وشمع نشرهـا الاثري الانكليزي هال (H. R. Hall) ثمَّ فسَّر معانيها وذيّلها بالملحوظات المفيدة وهـذه الآثار تتراوح بين القرن الخامس والثاني عشر للمسيح وهي تُقسم الى خمسة اقسام كلها تفيد تاريخ مصر في العهد القبطي . منها الكتابات المدفنيّة بالقبطيّة واليونانيّة خُصَّت بقبور شهداء نصارى القبط وفضلائهم مع رموز اخذوا بعضها عن قدمـاء المصريين كالنسر والقرص المجنَّح والصليب ذي العروة الرمزيّة . ومنها نصوص شرعيّة وأحكام ورسالات وجداول أعلام وآيات كتابيّة وبينها ايضًا الواح تقاديم وزجاجات وقناديل مع صورة القديس مناس يقود النوق وعليها كلها كتابات . واهمّ ما في هذه المخطوطات الخزفيّة ما اكتُشف في مدينة هبو وفي دير البحري تحتوي آثارًا كتابيّة لجماء الصعيد ورهبان اديرتهِ ضمَّنوها الرسالات الدينيّة وغيرها التي كانوا يرسلونها من دير الى آخر او الى شركاء الاديرة والفلّاحين . اما كتبة هـذه الرسائل فالبعض منهم معروف كابراهيم لسقف ارمنت (Hermonthis) الذي تحفظ وصاتهُ في المتحف البريطاني . ومنهم من كان مجهولًا لم يظهر لسهُ قبل هذه المرّة . ومنها

يزيد هذه الآثار أنها تفيد ايضاً اللغة القبطيَّة وآدابها ومآثرها بين الخاصَّة والعامَّة . فله لنا اذن الَّا ان نثني الثناء التام على هذا التأليف البديع ل . ج

De Sacramento Extremæ Unctionis. Tractatus dogmaticus auctore Josepho Kern, s. j. *Ratisbonne, Fr. Pustet*, 1907, in-8°. XVI-396.

كتاب سرّ المسحة الاخيرة

في هذه السنة تحتفل كليَّة انسبروك التي يديرها الآباء اليسوعيون في بلاد تيرول يوبيلها الخمسيني . وهو عيد نشاطر اخوتنا النسويين افراحهُ ونهنّئ فيهِ كلّ اساتذة تلك المدرسة الزاهرة التي يتقاطر اليها طلبة العلوم العليا من كلّ فجّ وأوب ليتلمَّذوا فيها المعارف البشريَّة بفروعها من لدن مشاهير المعلّمين الذين اغنوا العلوم بمنشوراتهم وتآليفهم الخطيرة في كلّ فنّ ولو سردنا هنا اسماءهم وجداول مصنَّفاتهم لخرجنا عن الحدود التي نتحرَّاها في فصل الانتقاد . وانَّما نخصّ بالذكر احدهم وهو الاب تيلس الذي توفاهُ الله سلخ كانون الثاني من السنة الجارية ولهُ مطبوعات اثيرة في الطقوس والكلندارات الكنسيَّة الشرقيَّة والغربيَّة تكرَّرت طبعاتها لفائدتها . وممَّا ورد علينا آخراً كتابٌ نفيس وُضع كتذكار لليوبيل المشار اليهِ ألَّفهُ الاب يوسف كرن مدرّس اللاهوت النظريّ في الكلية المذكورة الذي عرفناهُ مدَّةً في ڤينَّة وتحقَّقنا طول باعهِ في ضروب العلوم الفلسفيَّة واللاهوتيَّة وكان اذ ذاك يدرس اللغات الشرقيَّة ليتولَّى تعليمها في انسبروك . ثمَّ استدعت الاحوال رؤساءهُ الى ان عهدوا اليهِ تدريس اللاهوت النظريّ فبرَّز فيهِ واضحى حجَّةً يُرجع بهـا الى قولهِ . وهذا الكتاب الذي اهداناهُ آياهُ يبحث عن احد اسرار الكنيسة الذي قلَّت فيهِ مصنَّفات العلماء نريد المسحة الاخيرة . انتهج فيهِ حضرة المؤلف نهجاً جديداً جمع بين الطريقة العلميَّة والمدوسيَّة معاً فضمَّنهُ كلّ المباحث التي من شأنها تعريف حقيقة هذا السرّ ومادَّته وصورته وخواصّهِ وتاريخهِ منذ اوَّل النصرانيَّة في كنائس الشرق والغرب مع اختلاف العادات في توزيعهِ وتعريف شروطهِ المرعيَّة . وقد عرض كل ذلك على اسلوب واضح وتقاسيم منظَّمة وبانشاء لاتيني غاية في الطلاوة والبلاغة . وكذلك قد أتقن طبعُ الكتاب فجاء آيةً في الحسن اهلًا بعيد يوبيلي . وقد سرَّنا انَّ المؤلف لم يسهُ في ابحاثهِ عن العادات المألوفة في الشرق وعمَّا كتبهُ

اللاتنة الشرقيُّون في سرّ مسحة المرضى . وخلاصة القول انّ هـذا التأليف هو اليوم أحسن مـا كُتب في هذا الموضوع لا يستغني عنهُ اللاهوتيّون ومحبُّو الآثار الكنسيّة ولا نشكّ انّهم اذا راجعوهُ يحكمون فيهِ كحكمنا ل . ش

GRAMMAIRE ÉTHIOPIENNE avec **Chrestomathie et Vocabulaire**, accompagnée d'un **Appendice** et d'un **double Index** par le P. M. CHAINE S. J. *In*-8°, IX-284 pp.—Paradigmes et Index à part. 35 pp. *Beyrouth, Imprimerie Catholique*, 1907.

اصول اللغة الحبشيّة

اللغة الحبشيّة احدى اللغات الساميّة التي يدرّسها اساتذة المكتب الشرقيّ في كليّة القديس يوسف . وقد سبق لمجلّتنا الكلام في خواصّها وشُعَبها (المشرق ٨ : ١٠٠ و٣١٤) والعلماء لم يتكبُّوا على دراسة هذه اللغة الّا منذ عهد قريب لاسيّما اللغة الجيزيّة (gheez) التي هي لغة الاحباش المقدّسة فما كان نُشر في قواعدها الّا ثلاثة كتب : الاوّل منها في اللاتينيّة للرحّالة الشهير لودلف (Ludolf) في القرن السابع عشر والثاني للعلّامة الالماني ديلمان (Dillmann) طبع سنة ١٨٥٧ . والثالث مختصر للالماني پريتوريوس (Prætorius) وكلاهما بالالمانيّة . اما بالفرنساويّة فلم ينشر حتى الآن غرامطيق فقد سدَّ هذا الثغر حضرة الاب شان اليسوعيّ مدرّس اللغة الحبشيّة في مكتبنا الشرقيّ فوضع كتاباً وافياً في اصول لغة الحبش التديمة متحرّياً في ذلك المفيد للدارسين بحيث يستطيعون بوقت قريب ان يطالعوا الآثار الحبشيّة . ولذلك قد اكثر من الامثلة في كلّ باب من ابواب صرف الاحباش ونحوهم التي اوضحها . وقد ألحق الاصول بمنتخبات من كتاب التكوين ومن سفر راعوت ليرتاض بها الطلبة على درس اللغة . وقد ختم تأليفهُ بمعجم للمفردات . هذا فضلاً عن كرّاسة منفردة دوّن فيها تصريف الافعال مع جدولين للموادّ وللالفاظ المشروحة . ونحن لا نشكّ في رواج هذا الكتاب بين كلّ طلبة اللغة الحبشيّة ل . ش

شذرات

قصيدة السموأل — كتب لنا حضرة الاب انستاس الكرملي من بغداد : « جاء في المشرق (٩ : ٤٨٢ و ٦٧٤) نصّ قصيدة منسوبة الى السموأل وتمنّى صاحب المجلّة المذكورة (ص ٦٧٥) ان يحصل على نسخة ثالثة ليضلع بها ما جاء من الغلط في النسختين الافرنجيّة والموصليّة . وبينما انا ابحث في كُتُبي على احد شعراء بغداد في القرن المنصرم ورد ذكرهُ في مخطوط نفيس عندي إذ عثرتُ على قصيدة السموأل المذكورة ولمّا انعمتُ النظر فيها وجدتها قليلة الضرائر الشعريّة والاغلاط النظميّة وألينتُها تختلف الرواية عن النسختين المذكورتين فجئتُ اتحف بها قرّاء المشرق الكرام وأصف لهم المخطوط الذي وردت فيهِ مع بعض الانتقاد لهذه المنظومة . وقد وردت القصيدة في الصفحة ٢٧٤ من مخطوطنا وقد تُرجمت بهذا العنوان :

« هذه القصيدة للسموأل من بني قُرَيظة لا للسموأل من بني غسّان »

واليك الآن نصّها مع الضبط المشكول بكل تدقيق واماتة :

ألا ايها الضيف الذي عاب سادتي ... ألا أسمع جوابي لستُ عنك بغافلِ
ألا أسمع لفخر يترك القلبَ مولعًا ... وينشب نارًا في الضلوع الدواخلِ
فأحمي مزايا سادة بشواهد ... قد اختارهم رحمانُهم للدلائلِ
قد اختارَهم عُقمًا عواقرَ للورى ... ومن ثَمَّ ولّاهم سِنامَ القبائلِ
من النار والقربان والجَنّ التي ... لها استسلموا حبّ العُلى المتكاملِ
فهذا خليلٌ صُيّرَ النارُ حولَهُ ... رياحينَ جنّات النصون الذوابلِ
وهذا ذبيحٌ قد فداهُ بكبشهِ ... براهُ بدعًا لا نِتاجَ القبائلِ
وهذا رئيس مُجتبًى ثمّ مصطفًى ... وسأهُ اسرائيلَ بكرَ الاوائلِ
ومن نسلهِ الساعي ابو النضل يوسف ... م الذي أشبعَ الاسباط قمحَ السنابلِ
وصار بمصرٍ بعد فرعونَ امرهُ ... بتسيير أحلامٍ لحلّ المشاكلِ
ومن بعد احقابٍ سموا ما أتى لهم ... من الخير والنصر العظيم الفواضلِ
ألسنا بني مصر المكلّلة التي ... لنا ضُربت مصرٌ بشرّ مناكلِ
ألسنا بني البحر المفرّق والتي ... لنا غُرّق الفرعونُ يومَ التحاملِ
واخرجهُ المبدي الى الشعب كي يرى ... اعاجيبهُ مع جودهِ المتواصلِ
وكيما يفوزوا بالتيهة اهلها ... من الذهب الابريز فوقَ الحمائلِ
الستا بني القدس الذي نُصبت لهم ... غمامٌ تتيههم في جميع المراحلِ

من الشمس والامطار كانت صيانةً تجيرُ نَوادِيهِمْ نُزُولَ الفوائلِ
الـنا بني السلوى مع المنّ والذي لهم فجّرَ الصوّانُ عذبَ المناهلِ
على عـدد الأسباط تجري عيونها فُراتاً زُلالاً طعمُهُ غيرُ حائلِ
وقد مكثوا في البرّ عمراً مجدّداً يُغذّيهم العالي بغير المآكلِ
فلم يبلَ ثـوبٌ من لباسٍ عليهمِ ولم يُحوِجوا للنّعل كفّ المنازلِ
وأرسلَ نوراً كالعمود امامهم يُنير الدُجى كالصبح غيرَ مُزايلِ
الـنا بني الطور المقدّس والذي تَدَخدَخ لجبّار يوم الزلازلِ
ومن هيبة الرحمـان دكّ تذلّلا فشرّفهُ الباري على كلّ طائلِ
وناجى عليـهِ عبدَهُ وكليمَهُ فقدّسنا للرب يومَ التباهلِ اه

« فمن قابل بين هذه الرواية والروايتين الأُولَيين يحكم ان هذه اصح من قينك. وان هـذه نُقلت عن اصلٍ اصدق روايةً من النسختين اللتين أُخذت عنهما الروايتان الانرنجيّة والموصليّة ..»

ثمّ وصف حضرتهُ المخطوط الذي اخذ عنـهُ هذه القصيدة وهو مجموع حديث تاريخهُ سنة ١٢٣٢ ه . (١٨١٦م) يبتدئ بقصائد في مديح الوزير داود باشا نظمها عدّة شعراء عراقيين وعنوانها « نيل السعود في ترجمة الوزير داود » . ويلي القصائد منتخبات من كتب الحديث والادب والاقوال جمعها صاحبها المجهول من عدّة مخطوطات ومن جملتها هذه القصيدة للسموأل. فنشكر حضرة الاب انستاس على علوّ همّتهِ وتقدّمها للمستشرقين عـاهم يبدون فيها حكماً . ونكرّر رغبتنا الى مكاتبنا في الوصل ان يزيدنا علماً عن النسخة التي اخذ عنها روايتهُ وقد قال حضرتهُ انّها نسخة قديمة

الماس المصنوع توفّي آخرًا الاستاذ الكيمـوي الشهير موسّان الفرنسوي. فبادرت الجرائـد والمجلّات الى ذكر مآثرهِ . ومنّن اطرأهُ صاحب مجلّة المقتطف في عددهِ الاخير (١٩٠٧ ص ٢٥٩) على انهُ روى في جملة مكتشفاتهِ اصطناعهُ للماس. قال (ص ٢٦٠) « واهمّ (اي موسان) سنـة ١٨٩٢ باكتشاف طريقة لعمل الماس فكُلّل عمامـهُ بالنجاح وصنع حجارة الماس حقيقيّ ولكنّها صغيرة جدًّا مستخدماً الأتون الكهربائيّ » . (قلنا) هذا وهو خبر عارٍ من الصحّة سبق لنا كلام فيـهِ في المشرق (٦: ١٠٧٣ و ٧: ١٠٤٧) حيث بيّن حضرة الاب دي ڤراجيـل انّ مدّعى المرحوم موسّان لا اساس لهُ وانّ ما استحضرهُ ليس هو ماساً صناعيًّا بل عنصرًا آخر ليس فيهِ شيء من خواصّ الماسّ . فتأمل

أسئلة وأجوبة

س سأل من حيفا نيت الاديب انطون الم : ١ً ماذا يصيب كلًّا من الورثة اذا توفي الاب عن بنين واحفاد . ٢ً ما هي الطريقة لاستخراج عيد الفصح ولاي سبب وقع العيد هذه السنة في ٣١ اذار بعد وقوعهِ في العام الماضي في ١٥ نيسان

نصيب الورثة — طريقة استخراج عيد الفصح

ج نجيب عن (الاوّل) انَّ الأحفاد لا يرثون ان كان للاب بنون احياء . وعن (الثاني) انَّ المشرق قد افاض في هذه المسألة غير مرَّة راجع السنة الرابعة (ص ٤٢٢ و ٤٧٩) والسنة الخامسة (ص ٣٣٦) والسنة السادسة (ص ٦٧٢)

س وسأل حضرة الفتى نعمة الله الشهابيّ من دير القمر لايّ سبب الكنيسة الغربيّة تمنح البركة بالاصابع الخمسة والكنيسة اليونانيَّة بثلاثة اصابع

الاصابع في منح البركة

ج انَّ منح البركة في قرون النصرانيَّة الاولى لم يكن على طريقة مقرَّرة ثابتة كما يظهر بالآثار القديمة حيث يُرى المسيح والرسل وغيرهم يباركون تارة باليد الممدودة او المرتفعة بفتح الاصابع كلها وتارة بفتح اصبعين وهما الابهام والسبَّابة وقبض الاصابع الاخرى وحيناً بثلاثة اصابع وذلك على ثلاث هيئات اعني ١ً بالثلاثة الاصابع الكبرى المتتابعة الابهام والسبَّابة والوسطى . ٢ً بالاصابع الثلاثة الاخيرة . ٣ً بفتح السبَّابة والوسطى والخنصر وضمّ الابهام الى البنصر . وهذه الطريقة الاخيرة هي التي شاعت بعدئذٍ في الكنيسة اليونانيَّة اما اشارةً الى الثالوث الاقدس واما تصويرًا للحرفين الاوّلين من اسم السيِّد المسيح باليونانية I و X وقيل ايضاً انهُ يُشار بذلك الى حرفي الابجدية اليونانية A و Ω تنويهاً بقول الربّ في كتاب الرؤيا انهُ الاوّل والآخر ل . ش

* اصلاح غلط * اغفل صفّاف الحروف في النبذة المعنونة باثر قديم في العدد السابق (ص ٢٨٦ س ٢٠) اسم الشيخ نوفل الخازن الذي وجّه اليهِ فرنسيس الصليبيّ كتابهُ فجاء المعنى مشوشاً . وكذلك يُصلَح اسم «الخيّاطة» في الصفحة ١٢٥ س ٦ والصفحة ١٢٦ س ١٢ . وفي السطر ١٣ من هذه الصفحة كُتبت «هنطة» بالنون والصواب «هفطة» وقيل انَّ «الهاء والباء تتعاوران» والصواب «التاء والباء»